الحصى في الرؤية السعودية من الذاكرة التأسيسية إلى المشاهدة الرحلية .

إعداد

أ .د/عبد الله بن أحمد بن حامد آل حمادي

أستاذ بكلية اللغة العربية - جامعة الملك خالد

أبها - المملكة العربية السعودية

ملخص

ينطلق البحث إلى محاولة الإجابة عن سؤال حضور "الصين" في المدونة العربية التراثية، وفي المدونة الرحلية السعودية، باعتبار أن الثانية مكملة للأولى من حيث الارتهان إلى المكان وثقافته، حيث الجزيرة العربية قديماً، والمملكة العربية السعودية حديثاً.

إن الاتجاه نحو هذا السؤال فرضه موقع "الصين" حضارياً عبر التاريخ، وحضورها اليوم قوةً عظمى، وهو حضور مشع في الحياة العالمية قديماً وحديثاً، لم يتواز مع ما ينبغي له من صدى في الدراسات العربية المعنية "بالذات" و"الآخر" التي كرست جزءاً كبيراً من جهدها نحو "الآخر" الغربي غالبا! وهو سؤال نتجت عنه إجابات موضوعية تتعلق بقبول وتعايش وإشادة المدونة الثقافية العربية قديماً، والثقافة السعودية حديثاً "بالآخر" الصيني، عبر رؤية "الصين" حضارة مبدعة متقنة، ودولة عادلة جاذبة، وموطنا متميزا بأمانة وصدق وترحيب ساكنيه، من خلال الاستعانة بما يناسب البحث من آليات المبادئ البنيوية العامة، واتجاهها السيميائي، وعبر نظرية التواصل الياكبسونية، وبعض آليات النسق المضمر الذي يفسر العلامات. وهي آليات متنوعة لا تعني الشتات، بقدر ما تعني حرص البحث على أن تناسب هذه الآليات النصوص، ولا تفرض رؤيتها النظرية عليها.

الكلمات المفتاحية :

الصين، السعودية، أدب الرحلات، الرؤية الحضارية، التراث العربي.

Abstract

This study aims to explore the representation of China within the classical Arabic literary heritage and Saudi travel literature, positioning the latter as a continuation of the former in its connection to place and cultural narratives, which historically situated in the Arabian Peninsula and, in modern times, in the Kingdom of Saudi Arabia. The impetus for this inquiry arises from China's historical prominence as a civilizational force and its current status as a global superpower. Despite its enduring and influential presence in world history, China has not received proportional scholarly attention within Arab studies concerning the conceptualization of "the self" and "the other," which have predominantly focused on the Western "other."

The study employs a range of theoretical frameworks, including general structuralist principles, semiotic analysis, Jakobsonian communication theory, and elements of implicit systemic structures that facilitate the interpretation of semiotic markers. The integration of these diverse methodological approaches does not signify theoretical fragmentation; rather, it underscores the study's commitment to selecting analytical frameworks that align with the textual material rather than imposing preconceived theoretical paradigms upon it.

Keywords:

China - Saudi Arabia - Travel literature - Civilizational vision - Arab heritage

المقدمة

كان الباحث منذ سنوات عديدة يقلب طرفه – وهو المحب لأدب الرحلات – في سؤال حضور "الصين" في المدونة العربية القديمة، باعتبار أنها الدولة ذات التاريخ الحضاري العظيم، وكان هذا السؤال يتردد باستمرار وهو يرى هذا الحضور "للصين" في بعض مدونات أدب الرحلة الحديث. وهو ما دعاه للعودة إلى المدونة العربية القديمة في مجموعة من فروعها المختلفة التي أسست الثقافة العربية الإسلامية، ثم عاد إلى المدونة الرحلية السعودية الحديثة؛ باعتبار أنها استمرار للمدونة التراثية التي انطلقت من المكان ذاته، حيث جزيرة العرب قديماً، والمملكة العربية السعودية حديثاً.

ولئن كانت إجابة هذا السؤال البحثي هي الغاية المبتغاة؛ إلا أن هذه الإجابة قد تطلبت جهداً وبحثاً وتدقيقاً، ومع ما أخذت هذه الإجابة، إلا أن كل ذلك كان يسيراً هيناً في ظل الإجابات الرائعة التي وصل البحث لها. وهي إجابة محت بقيمتها التي أنارت الباحث كل جهد أو نصب في جمع مادة هذا البحث، وتصنيفها وتدوينها؛ فليس أجمل من الوصول إلى آفاق جديدة تقدم رؤية، وتبعث على استنهاض جهود الباحثين لمواصلة السير في هذه المساحة البحثية البكر.

وقد حرص البحث على أن تكون مدونته غير مقتصرة على رؤية مدونة تراثية محددة، أو مدونة رحلية معينة؛ تقدم إجابات جزئية، وفق زمنها وقدرة مؤلفها؛ فكان التوجه نحو مدونات تراثية عربية، تمثل نموذجا لطيف واسع من المدونات الدينية والبيانية والأدبية والشعرية، إضافة إلى مدونات عدد من الرحلات التراثية ،والرحلات السعودية الحديثة؛ رغبة في تتبع هذا الخيط المشع "للصين" في هذا المدونات عبر امتدادها التاريخي؛ لمعرفة التكامل والانسجام، أو التوتر والانقطاع في رحلة حضور "الصين"؛ولذا جاءت هذه المدونة عامة؛ لتكون النتيجة موضوعية إلى حد مأمول، وفيها قدر معقول من الشمول الذي يمكننا من الاطمئنان إلى أنها ممثلة للصورة الذهنية "للصين" في الذاكرة العربية قديما والسعودية حديثا. من خلال هذا الامتداد الزمني لهذه المدونات، الذي يبدأ من بدايات الكتابة في العلوم العربية المختلفة التي نقلت ما حفظته من "الشفاهي" قبلها وصولا إلى عصر التدوين وما تلاه من أزمنة تمثلها المدونات العربية القديمة ،وصولا إلى الرحلات السعودية الحديثة.

إن مما يحاول هذا البحث تقديمه ينطلق نحو مساحات فكرية ونقدية حديثة إلى حد ما، وهي التي تتعلق بعلاقات "الذات" "بالآخر"، وفق مفاهيم "الذات" "والآخر" التي تعني الاختلاف الفكري والثقافي والمكاني بين الحضارات، وهي هنا تتعلق "بالآخر الصيني"، بعد أن حضر "الآخر" الغربي في كثير من الدراسات، حيث "أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية "دون توسيع موضوعي لدائرة هذا "الآخر" لتشمل حضارات وثقافات أخرى ، وهو ما جعل البوصلة البحثية تعاني أحيانا من اجتزاء الأحكام، ومحدودية الرؤية، وتغييب حضارة تربطنا بها صلات كبيرة من الاحترام والتقدير المتبادل عبر التاريخ، في ظل مصالح مشتركة كبيرة تربط الثقافة العربية قديماً والسعودية خصوصاً بجمهورية الصين الشعبية.

إن البحث ليرجو أن يكون قد قدم ولو صورة أولى لملامح هذه العلاقة المشعة، المرتسمة في الذهنية العربية السعودية. وهو يؤمل أن تتواصل الجهود في تكريس هذا الجانب من الدراسات بعدما عاناه من قصور واضح فيما سبق! إذ لم يجد إن البحث فيما اطلع عليه من دراسات أية دراسة اتجهت نحو ما توجه إليه من رصد للمدونة العربية في سياقاتها المتنوعة دينياً وأدبيا وشعرياً ورحلياً. وهو ما يؤمل أن يكون قد قدم صورة أولى لهذه العلاقة الراسخة في أحضان التاريخ العربي العظيم،وفي كتابات الرحلة السعودية الحديثة .

التمهيد

تحضر الصين بتاريخها الحضاري العريق وبحاضرها المهيب في الذاكرة العربية منذ النصوص الأولى التي دونتها الذاكرة العربية في مدوناتها الأولى مرورا بالمدونات المتتابعة بعد ذلك، ووصولا إلى مدونة "أدب الرحلات" في المملكة العربية السعودية، وهي الرحلات التي كتبها الأدباء والعلماء السعوديون الذين ارتحلوا حديثاً إلى "جمهورية الصين الشعبية". وسيحرص البحث على تناول هذا الموضوع من خلال المدونة العربية التي ذكرت "الصين" في مدوناتها الدينية والأدبية والنقدية والشعرية التي وجدها البحث؛ لكي ترسم هذه النصوص الصورة التي انطبعت في هذه الذاكرة عن "الصين" ودونتها هذه المدونات.

ومن هنا فإن "الصين" المرادة في العنوان هي :"الصين التاريخ والحضارة والمكان" دون الحديث عن تفاصيل تتعلق بحدوده، وحوادثه المختلفة التي سيكثر الحديث عنها، لكن المقصود هو "الصين" الدولة الحاضرة منذ آلاف السنين، والتي كتبت عنها المدونات العربية المختلفة، ثم سجلها الرحالة السعوديون، باعتبار أن الثقافة العربية التأسيسية كان مصدرها التحول الحضاري الكبير الذي أحدثه الإسلام، منطلقاً من هذه الجزيرة العربية من خلال سياقاته المتنوعة، وذاكرته المختلفة فمن الطبعي جداً أن تكون المشاهدة السعودية في العصر الحديث امتدادا لعلاقات المكان وثقافته.

ويعني البحث بالذاكرة التأسيسية هنا المدونات المكتوبة التي بدأت التدوين في التاريخ العربي الإسلامي في سياقاته الدينية والأدبية والنقدية والشعرية، وهي مدونة تتسع بعد ذلك لتشمل مدونات كتبت في ظل الخلافة الإسلامية التي امتدت سياسيا، وتنوعت في قياداتها، وبلدانها التي توسعت مع الفتوح الإسلامية، ولكنها تبقى مدونة مرتهنة في كل امتداداتها المكانية والنوعية لهذه المدونة الأولى في الجزيرة العربية التي كانت المنطلق في تشكيل هذه الثقافة العربية وإن تنوعت الأماكن، وتعددت البلدان .

والمقصود بالرؤية السعودية هي الرؤية التي قدمها الكتاب السعوديون الذين ارتحلوا إلى الصين في العصر الحديث، وهي رحلات انطلقت من من خلال الرصد الرحلي المعروف في جنس :"أدب الرحلات" وهي رحلات لا تنفصل عن هذه المدونة التأسيسية العربية التراثية الراكزة في ذاكرة هؤلاء الرحالة.وهو تأسيس لا يمكن أن تتجاهله هذه الدراسة انطلاقاً من مركزية "الذاكرة التأسيسية العربية" وتأثيرها على قراءات هؤلاء الرحالة الذين أشار بعضهم في بعض المواطن صراحة إلى تأثير هذه الذاكرة، وهو تأثير حاصل لا محالة حتى وإن لما يشيروا إليه، فالسياق المتواصل لهذه الذاكرة هو الذي منح الرحالة القدرة على الكتابة، وهو مرجعهم الذى يمنحهم شرعية الكتابة الرحلية، والقدرة على تكوين أساليبهم، والتناص مع هذه الذاكرة عبر مرجعيات البيان العربي، في نثره وشعره بشكل عام. ومن خلال مدونات الرحلة العربية التراثية بشكل خاص. ولذا يضحي هذا البحث مقتنعاً بما أورده :"رومان ياكبسون" في نظرية الاتصال، التي يعنيه منها في هذا البحث حضور "السياق والشفرة" باعتبار أن السياق هو الذي يمنح الكتابة الرحلية ذاكرتها السياقية الممتدة إلى أولى الرحلات العربية، كما أن "الشفرة" هي المعول عليها في قدرة الرحالة الحديث اللاحق على إضافة بصمته الخاصة في كتابته الرحلية عن الرحالة أو الأديب السابق، وهي الشفرة التي تضمن لكتابته التميز، والوقوف أمام مد هذا السياق، فالحديث عن الصين يتجدد مع كل رحالة كتب عنها ،وهو السياق هنا،ولكن الشفرة المعنية هنا هو الجديد الذي أضافه الرحالة عن الرحالة السابقين أو تميز به .والبحث معني هنا بالاستفادة من هذين العنصرين وفق ما رآه البحث، واستفاد منه، غير ملتزم بمفهومها النقدي الفني الذي عناه "ياكبسون" وبخاصة وأن رومان ياكبسون يقول إن وظيفة "الشعرية" ليست الوظيفة الوحيدة لفن اللغة،بل هي فقط وظيفته المهيمنة والمحددة، مع أنها لا تلعب في الأنشطة اللفظية الأخرى سوى دور تكميلي وعرضي"[١] كما أن هذه الاستفادة تأتي ضمن استفادة البحث الأسس العامة من للبنيوية المتمثلة في ما أورده "ميجان الرويلي وسعد البازعي"

(١) قضايا الشعرية، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون،٣١،وينظر الخطيئة والتكفير لعبدالله الغذامي،١٠ وما بعدها.

حيث :"الشمول والانضباط الذاتي والتحول" [١] وهي مبادئ وظفها البحث في رؤية الصورة التي قدم من خلالها العقل العربي صورة الصين ،حيث غدت الصورة شاملة لحقب تاريخية متعددة،وكانت منضبطة في اتجاهها نحو بيان الصور الإيجابية المتنوعة للصين وفق نظام السياق والقراءة والرؤية ،كما أنها كانت متحولة مع كثير من الرؤى حيث تضع بصمتها الخاصة بها في نظام متتابع ومتناغم ،وهي وإن كانت تفيد من البنيوية في هذا الجانب؛فإنها لا تعزل السياق ولا الدلالات العلاماتية ومغازيها العميقة ، حيث تفيد من منطلقات "البنيوية السيميائية" في تحليل دلالات العلامات العميقة في بعض النصوص. كما أنه أفاد مما قدمه "عبدالله الغذامي" في كتابه: "النقد الثقافي" من فكرة النسق المضمر، دون أن يرتهن لتصوره الخاص باشتراطه أن يكون النسق المضمر مناقضا للنسق الظاهر، ومبيناً في بعض مباحثه قدرة بعض النصوص على سؤال بعض مسلمات "الغذامي" فيما يتعلق بالمديح في الشعر العربي، ورؤيته :ل "شاعر مادح وممدوح مانح". والبحث يثق أن استفادته من هذه المناهج والنظريات المختلفة لا يعد توفيقا، تلفيقا، وإنما هي استفادة تضيء النصوص المدروسة، وتحاول استنطاقها بعيدا، عن لي أعناق هذه النصوص لتستجيب لآليات النظريات،وتحقق فرضياتها .

إن المؤمل في هذا البحث أن يقدم صورة "الصين" كما ظهرت في المدونة العربية القديمة، وكما سجلتها رؤى الرحالة العرب قديماً، ورؤية الرحالة السعوديين المرتحلين إلى "الصين" في العصر الحديث؛ لأن ذلك سيجيب عن أسئلة محورية في هذا الشأن تتعلق بحضور هذه الصورة الإيجابية،وسياقات ورودها في هذه المدونات، ومدى تأثير السياق الكتابي على هذه الصورة التي تعني بجانبها الإيجابي؛باعتبار الصورة الإيجابية هي الرؤية التي شكلت أغلب إن لم تكن كل الصور عن الصين في هذه المدونات التراثية،وكثير من المدونات الرحلية الحديثة.

---

(١) ينظر: دليل الناقد الأدبي،٦٧و١٧٨.

إن من الأسئلة التي افترضها البحث مبدئيا هو سؤال يتعلق بهذه المدونات؛ فهل كانت صورة "الصين" في هذه المدونات الدينية والأدبية والشعرية تتنوع سلباوإيجابا ؟أم كان يغلب عليها نمطٌ واحدٌ؟ وهل أثر في هذه الصورة الإيجابية أو السلبية عن "الصين"اختلاف هذه السياقات الدينية والأدبية والشعرية ؟ وما تأثير طبيعة الزمن الذي تكتب المدونة فيه على صورة "الصين"؟ فهل حصل هناك أية اختراقات للصورة القديمة بفعل أية أحداث جديدة؟ وهل رسمت المدونة تفاصيل معينة "للصين" وأكدت عليها، أم أن المدونات كانت تكتب استجابة لمرويات وأحداث متجددة ومتنوعة؟ وما مدى تنوع هذه الصورة وتجددها، أو تكرارها ونمطيتها في المدونات القديمة والحديثة، وما دلالات هذا التنوع أو ذاك التكرار؟.

وسيجيب البحث – ضمنيا – عن أسئلة حضارية تثار في مثل هذه المدونات عن: التحيز والموضوعية، وأسئلة الانبهار والتماهي، وأسئلة الرفض والانزواء في سياق حضور"الصين" في هذه المدونات. وهي أسئلة تحضر كثيراً عند قراءة المدونات التي تعرض أحيانا للكتابة عن الدول والحضارات المختلفة. كما يؤمل البحث أن يشير إلى إشكالية تجذير المركزية الواحدة،والارتهان لها في ظل وجود مركزيات جديدة قمينة بالبحث والإشارة . وهي أسئلة فرضت على البحث أن يكون منهجيا في رسم خطة بحثه، فكان الاتجاه نحو جمع هذه الرؤى المبثوثة في المدونات المختلفة، والتأمل فيها، رغبة في بناء خيط منهجي موضوعي، يضم الشتات، ويركز الرؤية؛ رغبة في الشمول والدقة.

الصين المبدعة

١- الرؤية التأسيسية:

تحضر "الصين" بدءًا في المدونة العربية التراثية بصناعتها المتميزة،وتشكل صورة دالة في الذاكرة العربية الجمعية، وتشكل هذه الصورة "بنيوية: شاملة ومنضبطة ذاتيا، ومتحولة" تاريخياً عبر كل سياق جديد تحضر فيه الصين، وهو حضور صيني يتجاوز المنطق الاستعاري المركوز في الذهنية العربية إلى حقيقة الفعل المنجز،الذي تنقله الذاكرة العربية في تجرد صريح، بل وقبول وإعجاب منذ العصر العربي القديم قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنذ المدونات الأولى التي رصدها البيان العربي، ووثقتها الذاكرة العربية، وسجلتها الكتب الأدبية في أولى المواقف الحضارية التي تستعرض الحضارات والثقافات ومنجزاتها، ومن خلال مجلس تحكيمي سياسي كبير، وهو ما يجليه نقل المشهد في بعض المصادر الأدبية الأولى حين وفد"النعمان بن المنذر" على "كسرى" وعنده وفود الروم والهند والصين.

ينقل هذه الحادثة أحد أعمدة كتب الأدب العربي الأولى وهو كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه ٣٢٨هـ، حيث يستعرض كسرى الحضارات ويفضل "الصين والهند والروم" على العرب ثم يقول عن "الصين" معللا سبب تفضيلها: "**وكذلك الصين في اجتماعها، وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب، وصناعة الحديد، وفروسيتها وهمتها، وأن لها ملكاً يجمعها**"[١].

إن الحادثة هنا تشير إلى حضور "الصين" المسبب بحيثياته في سياق المجادلة الواقعة في القصة بين "كسرى" ممثل الخطاب السلطوي أمام الخطاب السلطوي العربي الذي يمثله "النعمان بن المنذر" ويبدو الخطاب محملاً بالدلالات (السيميائية) المنتمية في أصولها ومنهجيتها إلى السيميائية البنيوية،حيث هي منهج منتظم لدراسة

---

(١) العقد الفريد ١/٢٧٥.

الأنظمة الإشارية المختلفة كما يشير الرويلي والبازعي[١]، وهي علامة تثبت منذ بدايات الثقافة العربية وجود الخطاب النثري الحُر/ العقلاني الذي نفى وجوده عبدالله الغذامي،وهو يرد على ما أثبته أبو حيان التوحيدي وحلم به، إذ يمثل النص –الذي مثله حضور النعمان ثم مثله رسل النعمان بعد ذلك –بحوارته وحججه ونفيه وإثباته حضورا مهيبا لهذا الخطاب العقلاني الحر [٢] فالبياني العربي والسلطوي الكسروي ينطلقان من منطلق عقلي واحد، يعتمد الإقناع؛ بعد أن طلب العربي "النعمان بن المنذر" الأمان من كسرى، ويحاول كل منهما أن يكسر خطاب الآخر العقلي بالحجة، ونقض خطاب المحاور، إلا أن العلامة السيميائية الدالة هنا تشير إلى أن الطرفين لم يتعرضا لتفوق "الصين" التي أقر بها العربي، موافقا بالصمت موقف كسرى، باعتبار أنها مسلمة حاضرة آنذاك، وحقيقة من حقائق الاتفاق الجمعي، ولذا ينطلق الخطاب إلى زوايا أخرى تعتمد على من المحاورة الراصدة لمواقف ضعف الآخر، وتميز الذات.

وهي الحقيقة التي سجلت حضورها عربيا منذ العصور المبكرة لهذا البيان الشاهد بتميز الصين؛ فالجاحظ ٢٥٥هـ وهو أحد أهم بيانيي العرب، يقول وهو يمسرح مشهداً حوارياً أيضاً بين فريقين مختلفين، يحاول كل منهما بيان مزيته وقصور الآخر؛ حيث يرد أحدهما على الآخر في صناعته للغضار التي تشكل من الطين لصنع الأواني، بقوله : "**ولولا غضار الصين على وجه الأرض لم تعرفوا الغضار على أن الذي عملتم ظاهر فيه التوليد، منقوص المنفعة عن تمام الصيني**" [٣].

---

(١) دليل الناقد الأدبي، ١٧٩.

(٢) النقد الثقافي، ١٠٥-١٠٦.

(٣) الحيوان ٨٣/١.

ويبدو أن حضور "الصين" السابق وإن كان يأتي في إطار نوع من المجادلة والحوار والحجة يستحضر فيها العقل حججه المنطقية، وآلياته الجدلية، وهو يستحضر "الصين" بوصفها حجة لا يستطيع الخصم إنكارها، إلا أنه يشير إلى علامة سيميائية دالة حيث تأتي "الصين" في النص ريادية يقلدها الآخرون في صناعاتها، ولا يستطيعون أن يصلوا لجودتها الصناعية، وهو بعد دال عن هذه البنيوية التكوينية العلاماتية التي شكلت العقل العربي الجمعي في نظرته "للصين" التي مثلها هنا البيان في أوج عطائه حيث "الجاحظ وابن عبد ربه" وبعض كتبهم من الكتب المؤسسة بيانياً في تاريخ الثقافة العربية، ومن الكتب التي انعقد الإجماع العربي البياني قديماً على أهميتها.

وما يزال الخطاب الأدبي يستحضر هذه الحوارية معتمداً على مسلمة تميز "الصين"؛ فالجاحظ يقول بعد ذلك وهو في إطار هذه الحوارية الإقناعية: "**ألا ترى أن أهل الصين والتبت حذاق الصناعات، لها فيها الرفق والحذق ولطف المداخل، والاتساع في ذلك، والغوص على غامضه وبعيده**"[١].

إننا أمام بنيتين هنا بنية "شمولية" منضبطة نحو اختيار الحوار "الحقيقي" كما في قصة "النعمان بن المنذر" أو الحوار "المنقول" كما في حديث الغضار عند الجاحظ، وهما بنيتان تتحولان وتفيان بشرط "التحول" البنيوي، لكنهما منضبطتان في الاتجاه نحو الآلية ذاتها في الإقناع، وبذا يصبح الخطاب هنا بنيوياً تكوينياً يقوم على "الحوار" حول القضايا المختلفة التي تثيرها العلاقة بينهم وبين محيطهم الإنساني. وعندما يتغير الوضع تتوقف تلك "البنى" عن أداء ذلك الدور ويقوم الخطاب- بإنتاج بنى جديدة تختلف عن السابقةكما يقول "ميجان الرويلي وسعد البازعي" في تحولات البنيوية- "بإحلال بنى جديدة ومختلفة محلها" [٢]، وهو ما سيتضح في الصفحات الآتية، حين يتحول الخطاب ضمن تحولات مختلفة مرهونة بسياقات جديدة توجهه،

---

(١) الحيوان ٣٦/٥.

(٢) دليل الناقد الأدبي، ٧٧.

لكنها تحولات لا تخرجه عن أساس البنيوية "الشمولي" بل تنضبط وتقوم بعمل "تحول" وفق السياق الجديد، ويبدأ التحول بالجاحظ ذاته متحولا من آليات "الحجاج" إلى آليات "الإثبات" ومن آلية المفهوم البنائي "الإنشاء" كما في البلاغة العربية إلى "الخبر" حين يقول: "**فأما سكان الصين فهم أصحاب السبك والصباغة، والإفراع والإذابة والأصباغ العجيبة،وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسخ والخط،ورفق الكف في كل شيء يتولونه ويعانونه، وإن اختلف جوهره،وتباينت صنعته، وتفاوت ثمنه**"[١]، وفي ذات السياق البنيوي التكويني لهذا الاتجاه، يقول "الثعالبي" ٤٢٩هـ عن طرائف وجودة ما يعمله الصينيون: " **كانت العرب تقول لكل طرفة من الأواني وما أشبهها صينية، وقد بقي الاسم إلى الآن على هذه الصواني المعروفة، وأهل الصين مختصون بصناعة اليد والحذق في عمل الطرف. يقولون: أهل الدنيا ما عدانا عمى إلا أهل بابل فإنهم عور، ولهم الإغراب في خرط التماثيل والإبداع في عمل النقوش والتصاوير**"[٢].

وينقل "الراغب الأصفهاني" ٥٠٢هـ نص الجاحظ السابق، ويضيف عليه إضافة تحقق مبدأ التحول البنيوي حين يقول: "**أهل الصين أصحاب الأعمال كالسبك والصناعة والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة والخرط والنحت والخط والنسخ، ورفق الكف في كل ما تناولوه، وكانوا يباشرون العمل، ولا يعرفون الملل، لأنهم فعلة**"[٣].

إن الإضافات التي يقدمها نصا "الثعالبي والأصفهاني" تؤكدان البنيوية الذهنية المشيدة بصناعة "الصين" وتفوقها، وبالتالي فإن التحولات في النصين ليست تحولات مفروضة فرضاً وإنما هي تحولات ضمن بنية شاملة، طابعها الشمولي الإشادة، وتحولاتها ضمن الإضافات الجديدة عند "الثعالبي" حين أورد جمل: "أهل الدنيا ما عدانا عمي... الخ" وعند "الراغب" حين أضاف "يباشرون العمل لأنهم فعلة" والجمل دالة ورامزة إذا ذهبنا إلى نظرية التواصل "لرومان ياكبسون" وحولنا الاهتمام من

---

(١) رسائل الجاحظ ٦٩/١.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ٥١٣.

(٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ١٥٣/١.

"السياق" إلى "الشفرة" حيث السياق هنا فعل الإشادة "بالصين "كما ورد عند "الجاحظ" وغيره، وتأتي جملة "العمل وعدم الملل، لأنهم "فُعَلة" شفرة "الأصفهاني" الخاصة التي تطبع نصه، وتفارقه عن نص "الجاحظ" السابق. وكأن "الجاحظ" رسم السياق العام وجاء "الأصفهاني" بشفرته المعلوماتية التي يمكن أن تضيء النص على مستوى البنية المتحولة، وتضيئه على مستوى الشفرة الخاصة، وهو ما تحيل إليه جملة "العمل دون ملل"، والصفة المشبهة "فُعَله" وإن كانت نحوياً تشير إلى الفعل والثبات، ولكنه ليس الثبات الذي لا يتطور، بل الثبات المتجدد، وهو ما يشير إليه فعل المضارع "يباشرون"، ولم يقل "باشروا"، وتمنح كذلك جملة: "أهل الدنيا ما عدانا عمي..." نص "الثعالبي" شفرته الخاصة أيضا. ويمنح التكرار النص شفرة تأكيدية، حين يحيل على قيمة الاقتناع والتأييد، حيث يورد "ابن حمدون" ٥٦٢هـ في منتصف القرن السادس نص الجاحظ: "**وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها، وفروسيتها وهمتها في آلة الحرب، وصنعة الحديد، وإن لها ملكاً يجمعها**"[١]، إذ يغدو التكرار قبولا وتأكيدا لرؤية النص السابق! وهو ما يؤكد اتجاه السياق العربي نحو تأييد ما قاله "كسرى" عن تميز الصينيين.

إن المتأمل لما قاله خطباء العرب وحكماؤها حين أرسلهم "النعمان بن المنذر" إلى" كسرى" ليبينوا له حواريا مكانة العرب، وقوتهم، وأنفتهم فإنهم لم يتطرقوا إلى ثناء "كسرى" السابق على "الصين" باعتبار أن الثناء عليها مسلمة عربية عند النخبة العربية الواقفة أمامه، وهي تمثل العرب فصاحة ووعيًا، وسعة أفق وخطابة، وهي المقومات التي اختارهم من أجلها "النعمان بن المنذر"

بل إن الأمر ليتجاوز ذلك حين يخطب فصحاء العرب ودهاتها، وفرسانها أمام "كسرى" ويحاولون مداراة غضب سلطته بالإشادة به، والإشارة إلى مكانته التي أوصاهم "النعمان" بضرورة الانتباه لها؛ درءا لتهوره، وغضبه حين قال لهم: "**ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان، كثير الأعوان، مترف معجب بنفسه**".

---

(١) التذكرة الحمدونية، ٤٠٥/٧.

لقد سبق هذه الحوارية بين "الثقافي العربي وكسرى"، حوار آخر مثّله "النعمان بن المنذر"،حيث واجه خطاباً سلطوياً قويا في كل حالاته،لا يؤمن بالتعددية إلا بعد أن منح "النعمان" الأمانَ، وهو الأمان الذي جعل النعمان يبين فضل العرب في مجلس "كسرى" لكن الخطاب الثقافي الذي يمثله وفد "النعمان" بعد ذلك وهم "أكثم بن صيفي،وحاجب بن زرارة والحارث بن عباد، وقيس بن مسعود، وخالد بن جعفر، وعلقمة بن معد كرب، والحارث بن ظالم" والمتأمل لما تحدث به هؤلاء الأعيان المختارون من النعمان ليمثلوا قبائل العرب يجد أنهم كملكهم النعمان لم يشككوا أيضا في تفوق "الصين" الذى قال به "كسرى" أمام "النعمان بن المنذر"[١]، بل كان الخطاب سجالياً بين "كسرى" من جهة وعقول عربية منتقاة من جهة أخرى، ترد وتحاول وتناور دون أن تجرح الملك العظيم السلطان، الكثير الأعوان المترف بنفسه! متجاوزة التعليق على تفوق "الصين" قناعةً جمعيةً بأن "الصين" حضارة رافدة راكزة في الذاكرة الجمعية العربية المتمثلة في النخبة السياسية: "النعمان بن المنذر" والنخبة الثقافية: "أكثم من صيفي ومرافقيه"الذين استقبلوا–فيما يبدو– سياقاً عربياً ضاربا في القدم تتوالى وتنتقل عبره الإشادة "بالصين" وصناعاتها واجتماع كلمتها على ملك واحد،وهو سياق لا نعرف قدمه التاريخي، ولكننا نعرف أثره السياقي الممتد عبر التاريخ في حركة بنيوية متتالية يمثلها الخطاب الثقافي البياني والفكري والسياسي، وهو الأمر الذي يسري في المدونة العربية البيانية الثقافية قبل الإسلام، والتي أكدها المدونة الدينية بعد الإسلام التي أشارت وأشادت بمنجز "الصين" وجودته، وهو تفسر آيات القرآن الكريم، فحين يفسر "ابن الجوزي" ٥٩٧هـ قوله تعالى: "**ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً**" **ينقل عن "الدينوري" قوله في تفسيره "الزنجبيل": "ينبت في أرياف عمان، وهو عروق تسرى في الأرض، وليس بشجرة تؤكل رطباً، وأجود ما يحمل من بلاد الصين"**[٢].

---

(١) العقد الفريد ٢٧٩/١ وما بعدها.

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ١٥٠٠، ٤٣٨/٨.

إن الجودة الصينية هنا لا تحمل فقط على الثناء دون معرفة السياق، فالسياق هنا سياق قرآني كريم يتحدث عن الجنة بدلالاتها الغيبية المقدسة، ونعيمها وعن شرابها، فهو حديث مختلف جداً يحاول من خلاله المفسرون أن يقربوا المعاني إلى عقول القراء والمتلقين، فالشراب عموماً حاجة إنسانية لا يمكن العيش بدونها، ولكن الشراب هنا له مدلول آخر ينطلق نحو ما يفعله بعقل الشارب من تغييب للوعي،وطرد للأحزان والهموم،وبالتالي فهو أكثر جمالاً في عقلية العربي الذي تغنى شعراؤه بالشراب كثيراً، عبر كثير من قصائدهم قبل الإسلام وبعده،وهو ما يؤكد على مركزيته في الذهنية العربية التي جاء القرآن الكريم، ليحدد لها المقبول وغير المقبول، ويتحول "الكأس الدنيوي الآثم" إلى "الكأس الأخروي المشروع" والذي لا يمكن تخيل لذته إلا من خلال عملية تخيلية صرفة، لن تصل إلى حقيقته، ولكنها تحاول مقاربته مقاربة تخييلية للمتلقي، والقرآن الكريم يمنح العقل فرصة "التخيل" دون قدرة الوصول إلى الحقيقة، ولذا يأتي الكأس هنا "منكراً" للوصول إلى أبعد تخييل جمالي يمكن أن يصل إليه عقل كل متلق له. وهو يشبه في الجهة الأخرى المثل الذي ضربه القرآن الكريم لأبشع المناظر التي يمكن أن يتخيلها العقل ،ولذا وظف الخطاب القرآني الكريم "رؤوس الشيطان" مشبها به لشجرة "الزقوم" مجهولة المنظر؛ ليتخيل العقل أبشع صورة، وفق قدرته على التخييل الغارق في البشاعة، والسوء في قوله تعالى: "**طلعها كأنه رؤوس الشياطين**"[١] والله أعلم.

إن الخطاب التفسيري العربي القديم يستحضر كل هذه الأبعاد، وينطلق إلى محاولة تفسيرها الدنيوي، ولا يجد أفضل مما يرد من "زنجبيل الصين"، وكأن هنا اتفاقاً جمعياً على الجودة بين المفسر "ابن الجوزي"، والمتلقي العربي الذي يعي القيمة الريادية لما يأتي من "الصين".

---

(١) الصافات، ٦٥.

إن حضور "الصين" هو حضور الفعل المنجز المرئي ،بعيداً عن الحضور العقلي التخييلي؛ ولذلك تحضر "الصين" بفعلها المنجز المتحقق في الرؤية العربية التراثية على اختلاف مدونات سياقاتها، وهو ما رأيناه في النص التفسيري للقرآن الكريم، امتدادا لنصوص المدونة العربية التي سبقت النص التفسيري؛ وتأكيدا للرؤية العربية التي نقلها العرب، وآمنوا بها حيث يقف "**الفعل**" الصيني في مواجهة التخييلي والروحي والشاعري الذي تميزت به حضارات وأجناس أخرى! يقول "أبو حيان" ٤١٤هـ في مقابساته نقلاً عن أبى سليمان: "**نزلت الحكمة على رؤوس الروم، وألسن العرب، وقلوب الفرس، وأيدي الصين**"(١).

إن "الصين" تبدو في الذهنية العربية ممثلة "للفعل" فهي "تفعل" حين "تفكر" الروم، و"يشدو" العرب، و"يشعر" الفرس...

ويمكن أن نلخص الرؤية العامة التي أشار إليها "أبو حيان" نقلاً عن "أبي سليمان" بأن الصين الفاعلة مختلفة تماماً عن الثقافات الأخرى التي تتميز "بالحكمة النظرية" عند الروم، و"اللسان النظري" عند العرب، و"الشعور القلبي" عند الفرس.وقطعا فلن يكون هناك عمل باليد دون أن يسبقه تفكير وتأمل وتصور،وهو ما يشير سيميائيا بتفوق الصين بصناعة يديها،التي يسبقها قطعا الرؤية والتأمل والتخييل لما ستكون عليه المنجز،وجمالياته الممكنة .

إن الريادة العملية "للصين" التي أشارت لها المدونة العربية القديمة هي التي جعلت "الصين" مصدراً لتغذية العالم بمنتجاتها منذ القدم، فاليد التي صنعت "الورق" منذ القدم يد صينية، وليست "رؤوس الروم، ولا ألسن العرب، ولا قلوب الفرس" بل كانت نتيجة عمل يد "الصين" العاملة الماهرة التي تقوم بالفعل الريادي،ثم يكون الناس صدى بعد ذلك للصين! يقول "القلقشندي" ٨٢١هـ: "**فكان أهل الصين يكتبون في ورق يصنعونه من الحشيش والكلأ، وعنهم أخذ الناس صنعة الورقة**"(٢).

---

(١) المقابسات ٢٦/١.

(٢) صبح الأعشى ٤٧٥/٢.

لم تكن "الصين" رافدة وممولة صناعية للعالم فحسب، بل كانت أيضا مصدراً ملهماً للتعلم، "فالقلقشندي" ٨٢١هـ يستحضر ذلك في وضوح لا لبس فيه حين قال: "**وعنهم أخذ الناس صنعة الورق**". ويغدو الفعل الصيني حاضراً في الذهنية العربية في كافة اتجاهاتها البيانية والفكرية والإبداعية واللغوية والنحوية، فحين يستحضر"عبد القادر البغدادي" ١٠٩٣هـ مسائل "الظرف" وشواهده النحوية الخاصة، يتوقف أمام بعض أبيات معلقة "امرئ القيس" المشهورة بذاتها وبصاحبها المركوز إبداعاً وريادة في المخيلة العربية، إذ تحضر "الصين" وسط مسائل النحو العربي المتخصصة جداً، وهي تحضر أيضابإبداعها المتقن، وهو الإبداع المتفق عليه في الذهنية العربية، ولكن حضورها هذه المرة حضور أمام نص يعد من أجود ما قالته "ألسن العرب" التي نزلت الحكمة عليها كما ينقل ذلك "أبو حيان" فيما سبق؛ فأبيات المعلقة عالقة في الذاكرة العربية المشغولة كثيراً بتملي الجمال في "المرأة والصحراء والناقة" مما تفيض به ألسن العرب شعرا يتدفق جمالاً؛ جعله أكثر علوقاً في هذه الذاكرة، ويأتي "العقل النحوي" مؤكداً ما أشار إليه العقل الديني التفسيري قبله بقرون حين كان ابن الجوزي ٥٦٧هـ يستحضر في تفسيره للقرآن الكريم جودة اليد الصينية التي يأتي منها "الزنجبيل" حيث يورد "عبدالقادر البغدادي" ١٠٩٣هـ وهو العالم اللغوي النحوي قوله وهو يورد وصف "امرئ القيس" لاثنتين من النساء:

إذا قامتا تضّوع المسك منهما ... نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

ثم يستحضر قول الدينوري في كتابه "النبات" : "**القرنفل أجود ما يؤتى به من بلاد الصين وقد كثر مجيء الشعر بوصف طيبه**"[١].

(١) خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب، ٣/٤٥٠.

ومع أن "الزنجبيل والقرنفل" نباتان لا يتمايزان إلا بطيب الأرض؛ إلا أن الجودة تشير هنا إلى أنهما يخضعان لمهارة اليد الصينية في الزراعة والقطف والتنظيف والتخزين والشحن دون أن يتغير طعمه في ذلك الزمن المتقدم.

ومن العقل العربي اللغوي إلى رصيفه العقل البياني التأويلي، عبر فيلسوف وشاعر ومفكر سجل علامة خاصة في حياته وفنه، وهو "أبو العلاء المعري" ٤٤٩هـ الذي يعرض لتأويل أحد أبيات أبو الطيب المتنبي، وهو قوله:

ولو كانت دمشقُ ثنى عناني ... لبيقُ الثردِ صينيُ الجنان

ثم يقول: "**ووصف الممدوح بأنه صيني الجفان، لأن الآنية التي تجلب من الصين لها فضيلة على غيرها من آنية البلاد**"(١).

إن استحضار التأويلات التي تشير إلى "الصين" وإبداعها ودقة صناعاتها منذ القدم؛ ليدل على أنها مركوزة في العقل الجمعي العربي، وذاك جواب استباقي على من قد يرى أن هذه الإشارات، وإن شكلت علامة تتسم بمبادئ البنيوية؛حيث تتسم: "بالشمول والانضباط الذاتي والتحول" إلا أنها تبقى إشارات عابرة لحالات فردية خاصة، ولا تشكل رؤية عامة!

إلا أن الحقيقة تدل دونما مواربة على أن الخطابات هنا تتنوع ما بين خطابات تقوم على بنيتي "الحوار" وخطابات تقوم على "التأويل"، "فالحوار" كان حاضراً في المحاججات الحوارية بين "كسرى والنعمان بن المنذر" "والتأويل "كان في بعض المدونات الدينية التفسيرية للقرآن الكريم، والتأويلية البيانية للشعرية العربية، وهو حاضر كذلك في العقلية اللغوية العربية، وكلتا البنيتين تستهدفان الإقناع والإيضاح للمتلقي، وإيصال الفكرة إليه، وهو ما بدا واضحاً في النصوص السابقة.

---

(١) اللامع العزيزي في شرح ديوان المتنبي ١٤٣/١.

ويغدو "الزنجبيل والقرنفل والجفان" مواد مستحضرة دالة على البنية الأساسية المتمثلة في الثناء على:"يد الصين الماهرة"وهي مواد ترافق سياقات المدونة المختلفة، التي تتنوع لكنها تشير إلى حقيقة واحدة، بدأت منذ أقدم العصور العربية، ومازالت تسير حتى وصلت إلى القرن الثامن، وقد استوت قناعة راسخة في بعض نصوص البيان العربي، ومدوناته المركزية التي وصلت به القناعة في جودة منتج "الصين" وحضوره في الحياة الاجتماعية العربية إلى استحضاره علامة لغوية دالة على كل منتج متميز!حتى أسست أسماء جديدة بفعل "الصين" وتميز صناعاتها؛يقول "النويري" ٧٣٣هـ في محاضراته الأدبية:"**فإن العرب تقول لكل طرفة من الأوانى: صينية كائنة ما كانت لاختصاص الصين بالطرائف، وأهل الصين خصوا بصناعة الطرف والملح وخرط التماثيل والإبداع في عمل النقوش والتصاوير، حتى إن مصورهم يصور الإنسان فلا يغادر شيئاً إلا الروح، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت، وضحك الخجل، وبين المبتسم المستغرب، وبين ضحك المسرور، والهازي، ويركب صورة في صورة**" [١].

إنها اليد الصينية التي جعلت العرب تنظر في لغتها، وتضيف أسماء جديدة فيها، بناء على سماتها وتشكلاتها في الواقع الحياتي؛ لتكون "الصينية" لفظة حمالة لكل طريف ومتقن من الأواني، بل ولتأخذ شكلاً عموميا في التسمية على كل مرئي يتسم بالإبداع والجودة، وتنتزع بجدارة امتداداً زمانياً ما زال موجوداً حتى اليوم؛ مما يدل على أن منتج "الصين" قد أحرز مكانه ومكانته،وهو ما وقر في ذهن المتلقي العربي بعدما تكررت هذه الإشارات، وبعد أن رأى مصنوعات الصين بين يديه، لتكون قناعة عامة أن "الصين" بلد الإبداع الصناعي، كما قال "القلقشندي" ٨٢١هـ عن ممالك الصين: "**وكل هذه ممالك جليلة وأعمال حفيلة**" [٢].

---

(١) محاضرات الأدباء، ومحاورات الشعراء والبلغاء، ١٥٣/١.

(٢) صبح الأعشى، ٤٢٩/٤.

إن الخطاب العربي "لغويا وبيانيا"يتفقان على هذا الإبداع الصيني، وقد ساندهما في ذلك الخطاب الديني عبر بعض مؤلفات مفسري القرآن الكريم، وهي سياقات وإن كانت تتنوع في سياقاتها المضمونية، وزوايا رؤيتها، وآليات تعبيراتها إلا أنها تتفق على استحضار "الصين" نموذجا للريادة والإبداع والتميز، وهو ما يشير سيميائيا إلى تقبل المدونة العربية "للآخر"، وإعطائه حقه من التميز، والاعتراف بفضله وسبقه. كما تشير علاماته اللغوية النحوية والصرفية إلى تأكيد ذلك عبر صيغة: "الإضافة" عند الجاحظ ٢٥٥هـ، "**أصحاب السبك والصباغة**"، "**أصحاب الخرط والنحت**"، واستخدام صيغة: "الصفة المشبهة "**فعلة**" والفعل المضارع" الدال على التجدد عن الراغب الأصفهاني ٥٠٢هـ "**وكانوا يباشرون العمل لأنهم فُعَلة**"، واستخدام صيغة: "أفعل التفضيل" عند عبد القادر البغدادي ١٠٩٣هـ "**القرنفل أجود ما يؤتى به من بلاد الصين**"، واستخدام صيغة:"فعيلة"عند القلقشندي ٨٢١هـ "**ممالك جليلة، وأعمال حفيلة**" وهي بمعنى "فاعلة" واستخدام أبو العلاء ٤٤٩هـ لصيغة: "فعيلة" في إطار التفضيل "**لها فضيلة على غيرها**"، للحديث عن استخدام الجفنة الصينية.

إن الصيغ لتتعدد، لكنها تتجه نحو بنية واحدة شكلت رؤية الثقافة العربية لمنتوج "الصين" وإبداعها منذ القدم، وهى بنى تتحول تحولاً بنيويا، وفق مسارات متعددة كما سلف، لكنها تتسم "بشمول" الرؤية الإيجابية نحو هذه البلاد، وإبداع أهلها.

٢- الرؤية الرحلية التأسيسية:

لم يكن حضور الصين العيني الرحلي في الرحلة العربية القديمة إلا استجابة لعناصر الإدهاش والرغبة في المعاينة لما سبق وأن سمعوه عن "الصين" من القادمين منها، وإذا كان الخطاب التنظيري غير الرحلي ينقل من خلال مشاهد منتجات الصين الواصلة للبلاد العربية والإسلامية،فإن الرحلة تأخذ الرحالة إلى معاينة حقيقية "للصين" بعد أن ارتحل إليها لبواعث رحلية متعددة ،حيث الباعث الرسمي عند "ابن بطوطة" و"أبو دلف مسعر بن المهلهل" أو التجاري كما عند "السيرافي" ورواياته عن التاجرين "سليمان التاجر وابن وهب"،أو الاستكشاف الحر كما في غيرها من الرحلات التي قام بها "الهمذاني وابن خرداذبةواليعقوبي" حيث تحمل الصين عناصر الإدهاش بفعل تميزها ومنجزاتها المتنوعة .وتأتي الرؤية الرحلية مصدقة للرؤية النظرية السابقة التي سجلتها الرؤية المدونة العربية التراثية كما سبق.

إن الخطاب التنظيري كان يعتمد على القراءة والسماع، وعلى رصد بعض مظاهر حضور المنتجات الصينية في الحياة العربية آنذاك،بينما كانت الرحلة تأخذ الخطاب إلى جمالية المشاهدة، وقيمة تسجيل الواقع الذي يشترطه "أدب الرحلة"؛ لتكون النصوص منضوية تحت جنسه الأدبي "فالوثائقية" أو واقعية الرحلة " شرط لإدراج الكتابة ضمن أدب الرحلة ،كما أن أسلوب كتابتها" هو الذي يرفع الرحلة عن الوصف التقريري الجاف،وهما شرطان لا يمكن أن يتنازل عنهما "أدب الرحلة"؛ إذ بدون واقعية الرحلة الذي يبنى عليه الصدق في تقديم الوقائع، والأحداث، والمشاهدات تفقد الرحلة أهم مقوماتها،وهو ما يمكن أن يكون مقبولا في أجناس أدبية مختلفة مثل : "الرواية والقصة" اللتين تحملان أحياناً آليات الرحلة، لكنهما تبقيان أعمالاً تخيلية بحتة، وما ارتحالات الأبطال في روايات الاحتكاك الأول مع الغرب في مطالع النهضة الأدبية الحديثة إلا نموذجا على ذلك،حيث روايات: "زينب" لمحمد هيكل و"قنديل أم هاشم" ليحيى حقي، و"عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، و"موسم الهجرة إلى الشمال" للطيب صالح فهي نماذج للرحلة التخيلية التي تعد الرحلة بنية أساسية في بناء أحداث الرواية،متخلية عن الوثائقية متجهة نحو التخييل. وما رحلات: " سليمان التاجر وابن وهب التي رواها السيرافي، و رحلات ابن جبير، وابن بطوطة، والهمذاني، ورفاعة الطهطاوي في "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وأحمد فارس الشدياق في "كشف المخبا عن فنون أوربا" ومحمد كرد علي في "غرائب الغرب" وغازي القصيبي في " العودة سائحا إلى كاليفورنيا" وغيرهم كثير إلا نماذج على الرحلات الواقعية التوثيقية التي تدخل إلى "أدب الرحلة" وتجنس ضمن جنسه الأدبي .

لقد ارتحل مجموعة من الرحالة العرب إلى الصين ،وكتبوا عما شاهدوه ،ويمكن بدءاً أن يشير البحث إلى "أبي زيد السيرافي" ٣٣٠ ه الذي ارتحل ونقل عن الرحالين "سليمان التاجر وابن وهب" وهما من أوائل من وصل إلى "الصين" حسب المدونة العربية حدود عام ٢٩٢هـ حيث ينقل عنهما ما نصه: "**وأهل الصين من أحذق خلق الله كفاً بنقش، وكل عمل لا يَقْدُمُهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل يضع بيده ما يُقدِّر أن غيره يعجز عنه**"[١].

(١) رحلة السيرافي، ٥٨.

وهي ذاتها الرؤية التي نُقلت عن العالم "ابن وهب" عبر صدمته الحضارية التي مر بها في حواره مع ملك "الصين" حيث استدعاه الملك؛ ليعلم صدق ما قاله "ابن وهب" من قرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم، ويأمر ملك "الصين" بأن تعرض علىه صور الأنبياء؛ حيث يرى صور: "نوح وموسى وعيسى" عليهم السلام، ثم يقول: "**رأيت صورة النبي صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به على إبلهم في أرجلهم نعال عربية، وفى أوساطهم مساويك مشدودة، فبكيت! فقال للترجمان: "سله عن بكائه. فقلت: هذا نبينا وسيدنا وابن عمي عليه السلام، فقال: صدقت**" (١).

إن الرؤية والمشاهدة والاحتكاك هي التي جعلت الرأيين منطلقين من تجربة معاشة، حيث الرؤية في النص الأول، وحيث التجربة الشخصية في الرؤية الثانية، وتأتي "أفعل التفضيل" "أحذق" لتؤكد الحكم من خلال المشاهدة الشخصية خلال زيارة الصين والاطلاع على صناعاتها، وتفنن أهلها في ذلك .

ولا شك أن في الحدث الخاص برؤية الأنبياء عليهم السلام بعداً سيميائيا حضارياً يقوم على رغبة "الصين" من خلال أعلى سلطاتها السياسية على المثاقفة والاطلاع على ما لدى الآخرين ومعرفة رموزهم الدينية من خلال آلية التصوير، وتوظيف تفوقهم الحضاري الخارق بمقياس ذلك الوقت في هذه المثاقفة،وهي ولا شك تسجل "للصين" وعياً بأهمية الشخصيات الدينية والحضارية، والتحولات التاريخية والآنية التي تعيشها الأمم حولها، واحترامها لهذه التحولات، وعدم التدخل فيها، رغم معرفتها بها. كما أنها تشي سيميائياً أيضا بالتباين الحضاري التقني والفني الذي أذهل "ابن وهب" ممثل "الذات" ودعاه للبكاء بعد أن رأى صورة النبي صلى الله عليه وسلم،وهو تفوق فني وتواصلي أيضا حين يرصد المصور الصيني في اللوحة جزئية "الحذاء العربي" الذي عرفه "ابن وهب" وهو ما يؤكد ما عبَّر عنه قبل ذلك أدق تعبير بقوله عن الرجل الصيني المصور أن يصنع : "ما يقدر أن غيره يعجر عنه"، حيث دلالات الإتقان، والرغبة في التفرد والريادة، وهي إشارة دالة وفاعلة أيضا على احترام العمل، وتقدير الفن، والاعتزاز بالمهنة.

---

(١) رحلة السيرافي، ٦١-٦٢.

وهي حالة جمعية من التميز، يشيد السيرافي بها، حين يقول عن بناء الصينيين لبيوتهم من الخشب، وتبليطه بالطين،فيقول إنهم يعالجونه "**بعلاج لهم يتخذونه من خشب "الشهدانج"؛ فيصير في بياض اللبن، وتدهن به الجدر، فيشرق إشراقاً عجيبا**"(١).

ويلفت "السيرافي" النظر إلى سر من أسرار "الصين" في الإبداع والمهارة والتميز الصناعي وهو "التعليم"، وهو ما وعته "الصين" حينذاك، وآمنت به، وإذا كان "السيرافي" ينقل عن "سليمان التاجر وابن وهب" وهما اللذين وصلا "الصين" كما يقول في حدود ٢٩٢هـ فإنه يعني أن هذا الاهتمام بالتعليم كان منجزاً واعياً، تنبهت "الصين" له، وأشارت إليه المدونة الرحلية التراثية العربية منذ أقدم لقاءاتها "بالصين" وحضارتها حين قال :"**والفقير والغني من أهل الصين والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة**"(٢).

لقد أخذت "الصين" بأسباب التفوق؛ فنالت التميز والحضور. ولذلك يعد "ابن الفقيه الهمذاني" ٣٦٥هـ ما رآه في "الصين" من عمل وجهد وإبداع ما يشبه المعجزة التي خص الله بها أهل الصين،حين يقول: "**وقد خص الله أهل الصين بإحكام الصناعات، وأعطاهم ما لم يعط أحداً**"(٣).

إن بين رؤيتي "ابن وهب" حين قال: "ما يقدر أن غيره يعجز عنه" وقول "الهمذاني" :"وقد خص الله أصل الصين بإحكام..." تكاملاً موضوعياً في الرؤية؛ يؤكد العمل الصيني الجاد،والتوجه الجمعي نحو العلم والمعرفة، مما يؤكد أن هذا الاستحقاق الصيني لهذه الشهادات العربية التراثية كان استحقاقا موضوعيا ومنصفا.

إن الحضور الصيني المتميز في الصناعات الفنية المدهشة لم يكن خاصاً بجانب واحد، فهو مظهر حضاري في جوانب متعددة، إذ ينقل الرحالة "أحمد بن يحيى الهمذاني" ٧٤٩هـ عن بدر الدين التاجر تجربتين رأى إحداهما، وجرب الأخرى، حيث يخبره أن بعض صناع "الصين" عمل سرجا من "أختاء" البقر، ودهنه وأبدع صناعته ثم قدمه إلى "القان" وهو الملك؛فأعجبه، ووقع منه موقع الإحسان، ولم يشك أبداً أنه معمول من خشب مثل بقية السروج، فقال صانعه: "**أما علمتم هذا مما خشبه؟ فقالوا: لا، فأوقفهم على أنه من أختاء البقر، فاستحسنوا جودة صناعته ولطف تدقيقه**"(٤).

---

(١) رحلة السيرافي، ٥٨.
(٢) المرجع السابق، ٤٠.
(٣) البلدان ٥١٢/١.
(٤) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١٣١/٣.

وهي تجربة سمع بها، بيد أنه ينقل قبل ذلك تجربة عاشها حين أتعبه ألم في ضرسه "بالصين" يقول: "**كنت أشكو ضرساً في فمي فرآني بعض من كنت ألغث به في بلاد الصين وأنا أتألم لشدة الضربان، فسألني عما بي؛ فشكوت له وجع ضرسي، فاستدعى شخصاً حطاباً قصير القامة فقال له: ابصر حال هذا المسكين، فنظر في فمي، وبقي يقلب أضراسي بيده هنيهة، ثم أخرج ضرس الواحد ونصف الآخر، ولم أشعر لهما بألم، ثم أخرج من خريطة له كانت معه أضراسا كانت كوامل، وأنصافاً، وأثلاثاً وأرباعاً معدة عنده لوضعها في مواضع ما يقلع، ثم لم يزل يقيس مواضع ما قلع لي ،حتى وضع موضعها من تلك الأضراس، ثم ذر عليها ذروراً، ودهنها بدهن، التأمت به لوقتها، وأمرني ألا أشرب عليها يومي كله، ففعلت كأني ما قلعت شيئاً**"[١].

إن المهارة الصينية لم تكن في جانب الصناعات البنائية والفنية التصويرية،مما يمكن أن يكون تميز "الصين" فيها في جانب دون آخر، بيد أن الاتقان الصناعي رافق الإنسان في احتياجاته الحياتية الضرورية من مسكنه وتنقله وصحته ،بل ولبى احتياجاته الكمالية أيضا، حيث تقدم الصينيون في جانب "الضيافة" على نحو ملفت، وسجلوا منذ قرون بعيدة حضورهم في هذا الميدان، وهو تقدم يشبه ما نعيشه الآن بتفاصيله في حياتنا اليوم؛ وربما كانت الضيافة لديهم أساسا لما وصلت إليه اليوم. وهي شهادة ينقلها رحالة عربي عاش في "الصين"، وخبر نواحيها، وكتب في التاريخ ،وهو "أحمد بن يحيى الهمذاني"٧٤٩هـ الذي يقول عن نظام دفع المال لعمل ولائم المناسبات: "**حتى إن أحدهم إذا اهتم لضيافة كبير، بعث إلى صاحب المطبخ من تلك المطابخ، وقال له عندي ضيف، وأريد له ضيافة بكذا، في وقت كذا، فإذا كان ذلك الوقت حمل إليه من البسط والفرش والآلات والغلمان على قدر ما حدد له المضيف من القيمة، وحسب صاحب المطبخ حساب مكسبه من كان من ذلك أجرته، والمطبخ والدار والفرش وكلفة الطعام والشراب، وإتمام كل شيء بحسابه بقانون متفق لا يزيد ولا ينقص من غير أن يحصل على المضيف تفريط ولا خيانة مما قل أو جل**"[٢].

---

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١٣٥/٣ – ١٣٦.
(٢) المرجع السابق، ١٣٦/٣-١٣٧.

وبعد ذلك بسنوات قليلة يسجل "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ تميزاً صينياً في الجانب الاقتصادي، حيث يشير إلى نظام "العملة" في الصين، ويصفها بأنها على مقدار الكف، مطبوعة ويسميها "الكاغد" والجميل أنه يضيف أنها: "**إذا تمزقت في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا، فأخذ عوضها جدداً ودفع تلك، ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها**"(١).

وفي جانب آخر ينقل "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ تجربة شخصية مر بها في "الصين" لا تدل على المهارة الصينية في "التصوير" فحسب، بل وتدل على السرعة والاتقان، يقول: "**ومن عجيب ما شاهدت لهم في ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق!ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي، ونحن على زي العراقيين، فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط**"(٢).

لقد اتفقت الذاكرة العربية التأسيسية على الحضور الصيني في مجالات متنوعة، وقد قدم الخطاب العربي الزائر "للصين" كل هذا التميز في نواحيه المتنوعة من خلال الرؤية والاحتكاك والتجربة وهو ما شكل تراكماً معرفياً لصناعة صورة "الصين"، وهو ما يجمله "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ ويشيد به في تأكيد على أنها صورة عمومية رآها وشهد بها، بعد أن تلقاها من قبلُ من هذه الذاكرة التأسيسية النظرية، حين يقول: "**وأهل الصين أعظم الأمم إحكاماً للصناعات وأشدهم إتقاناً لها، وذلك مشهود من حالهم، قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه**"(٣).

وهي إشارة دالة من الرحالة العربي العالم المثقف السفير، الذي خبر الأمور عن قراءات ومشاهدات، ومن ثم جاء حكمه شاهدا لهذه الذاكرة العربية التنظيرية المنصفة، مما جعل الأحكام التنظيرية والرحلية تتواتر في أحكامها، لتؤكد صحتها ودقتها.

---

(١) رحله ابن بطوطة، ١٢٩/٤.

(٢) المرجع السابق، ١٢٥/٤.

(٣) المرجع السابق، ١٢٥/٤.

٣- الرؤية الرحلية السعودية:

واصل المرتحل السعودي الكتابة عن "الصين" من خلال مشاهداته وحوادثه الرحلية، مكملا ما بدأه الرحالة السابقون في "أدب الرحلة" المنطلق صوب "الصين" من خلال نماذج شكلت حضوراً سعودياً لافتاً في أدب الرحلة،أفاد من خلاله المرتحل السعودي من جماليات "أدب الرحلة" واستلهم التاريخ الكتابي لرموز هذا الجنس الأدبي وكتابه عربياً عالمياً؛فكانت "الصين" واحدة من الدول التي انطلق إليها،كما انطلق إلى غيرها من الدول، مستفيدا مما هيأته الحكومة السعودية من دعم لهذه الرحلات التي جاءت رسمية أو تعليمية ابتعاثية، أو برغبة شخصية سياحية؛ بعد أن وجد الرحالة السعودي إمكانات مادية معينة على السياحة والارتحال،والكتابة والنشر...

لقد بدأت الرحلات السعودية نحو "الصين" وثقافاتها في بداية الستينيات الميلادية حين زار الأديب السعودي "علي حسن فدعق" ١٤١٧هـ "سنغافورة وهونج كونج" عام ١٩٦١م، وخصص "الصين" وحضارتها وسكانها بأحاديث متنوعة من خلال رؤيته للمتحف الصيني، والتقائه بأعداد من المواطنين الصينيين، وذلك من خلال كتابه: "أيام في الشرق والأقصى".

ثم يزور "محمد العبودي" ١٤٤٣ه "الصين" عام ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م، في زيارات رسمية وهو واحد من أكثر الرحالة العرب وغير العرب كتابة في "أدب الرحلات"؛حيث لا يعرف أن هناك كاتباً عربياً أو غير عربي كتب في حجم ما كتبه هذا الرحالة والعالم السعودي عن رحلاته في العالم؛ [1]حيث كتب "مائة وثلاثة وأربعين كتاباً" في هذا الجنس الأدبي، ومنها كتبه عن رحلاته إلى "الصين" التي بدأت عام ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م ، حيث نشر ما كتبه في مجموعة من الكتب وهي: "في جنوب الصين حديث عن المسلمين في ماضيهم وحاضرهم" ، كما يكتب كتاباً آخر من جزءين هو :"داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين" وينشره عام ١٤١٣هـ ١٩٩٢ هـ

---

(1) ينظر كتاب : أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية،عبدالله حامد،١٨١.

وتواصل الرحلة السعودية انطلاقها نحو "الصين" بعد ذلك بخمس سنوات، حيث يكتب عبد العزيز المسند ١٤٢٨هـ عن رحلته إلى الصين كتابه :"الصين يأجوج ومأجوج عالم مجهول" وهي الرحلة التي كانت عام ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، وهو عنوان لافت يربط بين "الصين" وأقوام "يأجوج ومأجوج"، إلا أن "المسند" يورد في الكتاب استحالة الزعم بأن يكون "السد" المراد في سورة "الكهف" هو سور "الصين العظيم" ناقلاً رأي الشيخ عبد الرحمن السعدي الذى نفي ذلك أيضا بالأدلة النقلية والعقلية.

ثم يرتحل إلى "الصين" أيضا وزير الإعلام السعودي الأسبق "محمد عبده يماني" ١٤٣١هـ ويكتب كتابه المتفائل من عنوانه، والدال على محتوياته وهو كتاب : "قادم من الصين والإسلام بخير" وينشره عام ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

ويكتب رجل الأمن واللغوي الأديب السعودي اللواء يحيى المعلمي ١٤٢٢هـ كتابه الذي ضمنه رحلته إلى "الصين" تحت عنوان: "رحلة علمية ورحلات أخرى" ونشره عام ١٤١٢هـ - ١٩٩٢هـ. ويكتب الأكاديمي المؤرخ عبد الله القحطاني عن "الصين" أيضا في كتابه الذي ضم زياراته لمجموعة من البلدان لم يحدد تاريخها، وينشر ذلك في كتابه : "مسافر بين الشرق والغرب"

لقد انطلقت بعض هذه الرحلات من أجل دوافع عملية؛ تلبية لدعوة من الحكومة الصينية لزيارتها، والالتقاء بالمسلمين فيها، وهو ما ظهر جليا في رحلات "محمد العبودي، ومحمد عبده يماني، وعبد العزيز المسند" أو لأهداف الاطلاع والسياحة كما ظهر في رحلات ورؤى "علي حسن فدعق" الذي كتب عن "الصين" من خلال لقائه بالصين والصينيين، والاطلاع على متحفها العظيم في "سنغافورة" و"هونج كونج"، وهو ذات الباعث السياحي الذي كان خلف زيارة "يحيى المعملي" حيث زارها والتقى بالمواطنين الصينين، وكتب عن جماليات معاملتهم.

ومن المهم الإشارة إلى أن هذه الرحلات كانت في وقت قريب من بدايات التحول الصيني الحديث نحو الإصلاح الاقتصادي الذى بدأته "الصين" عام ١٩٧٨م .والجميل أن هذه السعودية في هذه الفترة كانت تستشرف المستقبل العظيم للصين من خلال رحلتها آنذاك نحو الإصلاح ،حيث كانت تتنبأ بنهضة كبيرة، ونمو قادم، وهي نظرة تنطلق من رؤية حقيقية للواقع الصيني، الذى تراجع فترة من الزمن، ثم بدأ الانطلاق بعد أن رسم طريق نهضته، يقول محمد عبده يماني ١٤٣١ه وهو يرى هذا الإصلاح مستحضرا تاريخ الصين العظيم: "**وما كان لبلد عريق كالصين أن يظل أسير فكر – في جوهره – دخيل عليه، مهما تسامى وجدانياً وثقافياً**" إلى أن يقول: "**وتمشياً مع سنة التطور استرجعت الصين حكمتها القديمة، ولكن في أسلوب جديد يتفق مع مستحدثات التاريخ**" [١].

وهو الأمر الذي جعل الرحالة السعوديين يستشرفون مستقبلاً مشرقا "للصين" ليس من خلال التحليلات السياسية والاقتصادية فقط، بل من خلال رؤيتهم "للصين" ومشاهدتهما للواقع الصيني، ولقاء الصينيين أنفسهم، حيث يقول أيضا محمد عبده يماني ١٤٣١هـ وهو يستهدف غداً مشرقاً "للصين": "**وليس ثمة شك في أن الصين الشعبية ستبرز على المسرح الدولي في المستقبل القريب مثلما أجمع عليه خبراء السياسة والاقتصاد كقوة عظمى، ومن واجبنا أن نتخذ من الصين دولة صديقة**"[٢].

ويشير تحديداً في مكان آخر إلى الصناعة الصينية التي كان لها تاريخها الكبير، مستشرفاً تاريخاً جديدا لها، يقول عن هذه الصناعة إنها :"**سوف تزدهر على طول الساحل الصيني، وسيرتفع دخل الفرد عما هو عليه الآن، وسوف تصدر كثير من المصانع التي تمتلكها الدولة أسهما للجمهور، وسينمو القطاع الخاص ليكون أكثر بروزاً للعيان**"[٣].

---

(١) قادم من الصين والإسلام بخير، ١٦.

(٢) المرجع السابق، ١١٥.

(٣) المرجع السابق، ٣٢.

إن عين الرحالة السعودي لتستحضر ماضي "الصين" وحاضرها ومستقبلها، فهي تنطلق "للصين" وفي ذاكرتها هذا الحضور الصيني المزدهر في المدونة العربية القديمة، وترى حاضرها، وتنظر إلى مستقبلها...

إن مؤشرات هذا الحضور "للصين" في الذاكرة يبدو واضحاً في نص الرحالة السعودي الذي يؤكد أن تاريخ "الصين" العظيم سوف يجدد مكانه مرة أخرى، وهو التاريخ الذي يؤكده محمد العبودي ١٤٤٣هـ أن قراءته لهذا التاريخ كانت سببا من أسباب حب زيارته للصين، يقول: "**ومضى بي الزمن فطلبت العلم، وقرأت الكتب، وكان فيها من تعظيم شأن الصين في سعة أرضها وحضارتها المتميزة ما حبب إلي زيارتها، وحفزني إلى التطلع إلى رؤيتها**"(١).

ومع أن الصين لم تكن قد حققت نهضتها الصناعية الجديدة حين ذاك إلا أن الرحالة السعوديين قد شهدوا بعض الإبداعات الصينية على المستوى الصناعي والحضاري، يقول محمد العبودي ١٤٤٣هـ وهو يرى غرابة الملجأ الذي أنشأته "الصين" وتناغم درجات حرارته مع الجو خارجه ليلائم جوا بديعا داخله: "**ومن طرائف المعلومات عنه ما أخبرنا به مدير الحكومة من أنه ينقص ثلاث عشرة درجة من الخارج في شدة البرد والحر، فتكون درجة الحرارة في شدة الصيف أقل من الخارج ثلاث عشرة درجة، وتكون في الشتاء أعلى بثلاث عشرة درجة**"(٢).

وهي لمسات صناعية تذكر بتراث "الصين" القديم، في فترة لم تكن نهضتها الجديدة قد استوت على سوقها، لكنه الإبداع الصيني الذي يجمع إلى دقة صنعته الذوق الصيني الذي رآه الرحالة السعوديون ماثلا في المكان والإنسان، فإذا كانت الصناعة الصينية القديمة حاضرة بدقتها وجودتها؛ فقد ظهر الإبداع الصيني في بداياته حين كان الرحالة السعوديون يرتحلون في هذه الفترة الممهدة لانطلاقة

---

(١) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ٦/١.

(٢) المرجع السابق، ٢٨٩/١.

"الصين" الكبرى، ولا يعدمون أن يروا بعض لمسات الإبداع الإنساني الذي اشتهر بها الصينيون عبر التاريخ، ومن خلال ما حفظته المدونة العربية كما تقدم، يقول محمد العبودي١٤٤٣هـ عن حديقة "يوتشيوم": "**وتجلى الذوق الرفيع، وحسن الاختيار لمكان الحديقة عندما رأينا الروابي الخضر التي تحفل بها الحديقة والبحيرات الطبيعية الصغيرة التي تنتشر في الأماكن المنخفضة فيها، وهي كبيرة واسعة، وأخبرونا أنها دائمة الخضرة**"[١].

ويتحدث عبد الله القحطاني عن حديقة "لواتمنغيوان"، ويقول عنها: "**وهي من أروع الحدائق في تاريخ الصين، ويطلق عليها البعض تسمية حديقة الكمال أو الجمال، وتمتد لمساحة ٣٥ هكتاراً على أرض تتميز بالتلال المتموجة والبحيرات الرائعة، والأشجار القديمة ما يجعلها أرض العجائب، وفيها أيضا قصور تحتوي على نفائس قيمة، ومقتنيات إمبراطورية ثمينة**" [٢].

لقد كانت بنيوية المدونة العربية ممثلة لذاكرتها الجمعية، هذه البنيوية التي سجلت الشمول منذ أقدم العصور العربية حين كان "النعمان بن المنذر" يحاور كسرى وكانت رسله العربية تعود لكسرى، وهم في أثناء حواراتهم يؤكدون ما رآه "النعمان" قبلاً من حضور "للصين" ،واجتماعهم على ملكهم، ثم كانت المدونات "التفسيرية واللغوية والأدبية" تتجه نحو الحديث عن الإبداع الصيني في كل المجالات. وهى وأثناء ذلك تشكل "انضباطاً ذاتيا" في كل تحركاتها ؛فهي تستحضر المنتج الصيني، وتؤكد تميزه، وتضرب الأمثلة عليه من محفوظاتها ومسموعاتها ومرئياتها لبعض المواد التي قدمت من "الصين" حتى جاء عصر الرحلة عبر سفراء الجزيرة العربية من التجار من أمثال: "سليمان التاجر وابن وهب" وما رواه عنهما "أبو زيد السيرافي" ثم تلا ذلك تجارب الرحلة العربية التأسيسية أيضا التي واجهت الحضارة الصينية مواجهة

---

(١) في جنوب الصين حديث عن المسلمين في ماضيهم وحاضرهم، ١٣٢.

(٢) مسافر بين الشرق والغرب، ٦١٠.

المعجب المثنى المقدر لكل هذه المنجزات، حيث يتحدث عنها الرحالة، وفق بنية المشاهدة والتجربة، ليؤكدوا رؤى من سبقهم التي كتبوها في المدونة النظرية، وهو انضباط يتحول من داخله أحياناً ؛ليجذب سياقه الخاص به، كما نقله: "الجاحظ- وابن الجوزي- وأبو حيان -والقلقشندي- وأبو العلاء المعري- والبغدادي" إذ تأتي البنية المتحولة مع كل رؤية جديدة، ثم تأتى بنية المشاهدة؛لتشكل تحولاً داخلياً يعمل عمله داخل البنية الكبرى المثنية على "الصين" ولكنه تحول من خلال المشاهدة والتجربة والاحتكاك كما في مشاهدات:"السيرافي- والعمري الهمذاني- وابن بطوطة" في رحلاتهم قديما،ومشاهدات :"علي حسن فدعق ومحمد عبده يماني ومحمد العبودي" حديثافي الرحلة السعودية الحديثة.

الصين الآمنة

أمن البلاد غاية سامية من غايات قادتها وحق من حقوق شعوبها، وأس من أسس استمرار بقائها ورفاهيتها، وعلامة على إمكانية النهضة والإبداع في كل الميادين، وهو القوة الكبرى التي تصنع الفرق في التفاوت بين البلدان، وهو المعنى الذي وعته "الصين" منذ العصور المبكرة، كما سجلته المدونة العربية القديمة بسياقاتها المتنوعة، وحقولها البيانية المختلفة، وما سجلته أيضا الرحلة السعودية الحديثة،وهو ما سيتجه البحث إلى تقسيمه من خلال محوري الأمن الاجتماعي، والأمن النفسي:

١- الأمن الاجتماعي:

إن الشعور بالأمن في أي بلد لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال أخباره المروية، وزياراته الواقعية، وقد حضر الأمن الصيني في المدونة العربية القديمة من خلال كتب الرحلات، وهو ما أشارت إليه نقولات "السيرافي" ٣٣٠هـ بدءا، وهو يتحدث عن الآليات التي وضعها الصينيون منذ القدم؛ لحماية أمنهم، وأمن من يصل إليهم من خلال مفهوم سابق وريادي لمفهوم "التأشيرة" المعروفة اليوم التي تمنح للمسافر، إحداهما مختومة من الملك، والأخرى من نائبه "الخصي"، يقول عن آلية الصينيين في التعامل مع المسافرين: "**ومن أراد سفراً من بعضها إلى بعض أخذ الكتابين من الملك ومن الخصي، أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل، واسم من معه، وكم عمره، وعمر من معه، ومن أي قبيلة هو، وجميع من ببلاد الصين وأهلها من العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يُعرفون به، وأما كتاب الخصي فبالمال، وما معه من المتاع، وذلك لأن في طريقهم مسالح**[١] **ينظرون إلى الكتابين، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا: "ورد علينا فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا وشهر كذا وسنة كذا، ومعه كذا، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعاً، فمتى ما ذهب منه شيء أو مات، عُلم كيف ذهب، ورد عليه أو على ورثته من بعده**"[٢].

---

(١) المسالح هي المراقب المرتفعة التي يراقب منها المعنيون بالأمن .

(٢) رحلة السيرافي، ٤٣.

إنها الاحتياطات الأمنية التي تجعل الإنسان في الصين يطمئن على سلامته، ويمارس حياته وتجارته بكل حرية، وأنت واجد في النص "السيرافي" السابق تفاصيل دقيقة؛ تدل على أن هذا التميز الأمني كان مثار متابعة ووعي وتقدير الرحالة العرب. وكيف لا "والسيرافي" ذاته يصرح بأن عقوبة السرقة عند الصينيين حين ذاك هي القتل،حين يقول: "**وسننهم في اللصوص أن يقتل اللص إذا أصيب**"(١).

والعجيب أن الصينيين كانوا يستخدمون تقنيات متقدمة كثيرا في المتابعة الأمنية، إذا ما قيست بزمنها، حيث أشارت المدونة العربية لهذه التقنيات المتميزة، يقول "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ عن تقنية التصوير في الصين لأغراض أمنية آنذاك: "**وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم، وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته إلى البلاد، ويبحث عنه، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ**"(٢).

إن الدقة الصينية الأمنية المتقدمة تعي دون شك ما يمنحه الأمن من ازدهار للبلاد وتقدم لها، وهو أمن يبدأ من دخول الصين أو العودة إليها، ومن نظام دقيق يعتمد على تسجيل أسماء الركاب المغادرين في البحر، فإذا عادت المراكب قارنوا بين ما سجلوه في الأوراق، وما أمامهم! وهو ما ينقله "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ، ثم يقول بعد ذلك: "**فإن فقدوا أحداً ممن قيدوه، طلبوا صاحب الجنك به، فإما أن يأتي ببرهان على موته، أو فراره، أو غير ذلك مما يحدث عليه، وإلا أخذ فيه**"(٣).

إن هذه الدقة الأمنية المتقدمة لتلفت نظر القارئ إعجاباً وتقدير، وخاصة إذا ما تذكر المتأمل مساحة "الصين" الكبيرة، وتعدد مدنها، وكثرة أسواقها، وكثرة الزائرين لها، "فأحمد بن يحيى القرشي" ٧٤٩هـ يقول نقلا عن "بدرالدين التاجر": "**وبلاد الصين تشمل على ألف مدينة**"(٤)، **وأسواقها في كل ناحية** (٥)، كما يقول "السيرافي" ٣٣٠ه أيضا.

---

(١) رحلة السيرافي ، ٣١.
(٢) رحلة ابن بطوطة، ١٣٢/٤.
(٣) المرجع السابق، ١٣٣/٤.
(٤) مسالك الأبصار ومسالك الأمصار، ١٣٣/٣.
(٥) ينظر : رحله السيرافي، ٣٠.

وينقل "القلقشندي" ٨٢١هـ عن "السمرقندي" الرحالة في كتابة "مسالك الأبصار" وهو كما يُعَرِف به من السُفَّار، وممن جال الآفاق، ودخل "الصين"، وجال بلاده، وجاب آفاقه، وجاس خلاله، ثم يقول نقلا عنه: "**بلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد ومن قرية إلى قرية**"(١). وغير خاف أن كثرة المدن،والقرى،والأسواق دلالة أمن واستقرار؛فلا يمكن أن تكثر على هذا النحو لو لم يجد القاطنون والتجار مقومات الأمن حاضرة بارزة.

ومع هذا الاتساع، والكثرة في عدد المدن التي أشار لها القرشي، وربما كانت مدناً صغيرة إلا أن كل ذلك يدعو للتأمل والإعجاب؛ تقديرا لهذه الآليات الأمنية المتقدمة، التي تشعر الرحالة بالأمن، وتمنحه الارتياح في سفره، بين مدن "الصين" أو إقامته فيها. فهو محاط بهذه الآلية الأمنية التي تحفظ نفسه وماله، يقول "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ عن تجربة التاجر المسلم حين يصل إلى "الصين" بأن الصينيين يخيرون التاجر المسلم بين النزول على تاجر آخر، أو في الفندق، ثم يحصر ماله إن نزل عند التاجر، ويضمنه التاجر، فإذا أراد السفر بُحِث عن ماله فإن وُجِد شيء منه قد ضاع تحمله التاجرُ المستوطن الذى ضمّنه، وإذا أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه" ثم يقول متحدثاً عن الأمن الصيني الماثل أمامه بعد تجاربه الكثيرة في السفر: "**بلاد الصين آمن البلاد، وأحسنها حالاً للمسافر، فإن الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها**"(٢). ويعلل ذلك بنظام التوثيق الذي يقوم به رجال متخصصون، وهي شواهد على قيمة كبرى من قيم الحضارة الصينية وتجلياتها المزدهرة.

---

(١) صبح الأعشى ٤/٤٧٩.

(٢) رحلة ابن بطوطة ،٤/١٣٣-١٣٤.

٢- الأمن النفسي:

ارتبط الأمن في الذاكرة الإنسانية بالأمن الحياتي المرتبط بالقدرة على اطمئنان الإنسان على أمن نفسه، وماله في أي بلد حل فيه، وهو ما تحاوله وتسعى إليه في كل زمان الأنظمة والسلطات التشريعية والتنفيذية التي تقوم على سن كل ما من شأنه ضمان ذلك. وهو مفهوم يمكن أن يضاف إليه هنا مفهوم آخر، وهو "الأمن النفسي" الذي ينتج عن مجموعة من الرؤى والسلوكيات الممارسة التي يتصف بها شعب من الشعوب، ما تجعل هذه السلوكيات مصدرا للارتياح النفسي،والشعور بالقرب الإنساني،وإمكانية العيش والتعايش في هذه الدول التي تبرز فيها هذه السلوكيات،حيث تصنع جوا من التآلف الإنساني،والإعجاب الشعوري،وخاصة إذا كانت هذه المزايا صفات يتسم بها القادة كما يتصف بها الشعب. وهو ما صفات وممارسات رآها العرب عن الصينيين،ودونوها في مدوناتهم العربية الأولى عن "الصين" قديما،ومارأوه حديثا أيضا.

لقد شعر العرب قديماً بأن "الصين" بلد حوارية مسالمة آمنة، تؤمن بالتعددية والتسامح. حيث تظهر هذه "الحوارية" في المدونة العربية التراثية جلية واضحة، متمثلة في المستوى السياسي منذ قصة "الإسكندر" مع "ملك الصين"، والوصول معه إلى السلام، بعد أن كان "الإسكندر" يريد غزو بلاد "الصين"،وهي القصة التي أوردها التنوخي ٣٨٤هـ وهي قصة تدل على حب السلام،والركون إلى حفظ النفس وصون المال،وتقديم لغة الحوار على لغة القتل ،وهو ما جعل ملك "الصين" يذهب إلى الإسكندر، متنكرا في صورة رسول للملك الصيني،وحين لقيه وأصبحا منفردين؛ أخبره بأنه ملك "الصين"ودعاه للسلام، ولما استجاب "الإسكندر"بعد حوار يتدفق بالحكمة والوعي، وحين ذاك يرى "الأسكندر" جيشاً هائلاً من الصينيين؛ فيقول للملك: "**غدرت ؟**

قال: لا والله...

قال: فما هذا الجيش؟

قال: إنى أردت أن أريك أنني لم أطعك من قلة ولا من صعف، وأنت ترى هذا الجيش وما غاب عنك منه أكثر، ولكنى رأيت العالم الأكبر مقبلاً عليك، ممكناً لك ممن هو أقوى منك، وأكثر عدداً، ومن حارب العالم الأكبر غُلِب، فأردت طاعته بطاعتك، والذلة لأمره بالذلة لك.

فقال الأسكندر: ليس مثلك من يؤخذ منه شيء فما رأيت بيني وبينك أحدا يستحق التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك"[١].

وهو الموقف الذى استحضرته المدونة العربية، لتجدده باستحضارها نموذجاً مماثلاً في قصة :"قتيبة بن مسلم" حين اقترب من أرض "الصين"؛ لغزوها، وهنا تتكرر الحكمة الصينية في التعامل مع هذا الموقف كما تعاملت منذ قرون مع "الإسكندر"، حيث ينتخب "قتيبة بن مسلم" عشرة من رجاله بعد أن طلب منه ملك "الصين" أن يبعث له من يخبره عن دين "قتيبة" وجيشه، وانطلق العشرة لملك "الصين"، وكانوا يدخلون عليه ثلاثة أيام، دون أن يكلمهم، وكانوا يغيرون ملابسهم في كل يوم بين الأبيض الجميل في اليوم الأول، والوشي والعمائم في الثاني، والسلاح في اليوم الثالث ،وبعد أن لقيهم الملك، سألهم أولاً عن تنوع لباسهم بتنوع الأيام، فوضحوا له أن اللبس الأول يلبس في أهلهم، والثاني يلبس عند أمرائهم، والثالث يلبس لعدوهم، ثم قال لهم: "**ما أحسن ما دبرتم دهركم، فقولوا لصاحبكم ينصرف، فإني قد عرفت قلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم! فقالوا: إنه حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم، ويختم ملكوكم! فقال: إنا نخرجه من يمينه، ونبعث له بتراب من أرضنا فيطؤه، ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختمهم، فَقَبل ذلك قتيبة، ووطئ التراب، وختم الغلمان وردهم**"[٢].

---

(١) الفرج بعد الشدة، ٣٤٢/٢ – ٣٤٣

(٢) ينظر نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب، ١٨٣/٢١.

إن علاقة السلطة الدينية العربية الإسلامية "بالصين" منذ قرون طويلة كانت تقوم عبر الحوار في مواجهاتهما "فالإسكندر" على فرضية أنه: "ذو القرنين" هو ممثل الثقافة الدينية التي يراها العرب والمسلمون عبر وجود قصته في "القرآن الكريم"، و"قتيبة بن مسلم" هو ممثلها في القرن الأول الهجري، وكلتا المواجهتين اللتين كانتا تخططان للحرب، تنتهيان سلاما على نحو جميل، بالحوار والإقناع المبنى على وعي صيني سياسي، تؤكده المدونة العربية بتجرد وأمانة، حيث اختيار طريق : "السلام" مع وجود قوة صينية هائلة قادرة على الحرب والمواجهة في الحالتين. وهي "الحوارية" التي تدل على وعي صيني بأهمية الحفاظ على أمن النفوس واستقرار الأمن عليها،وهو ما تنقلها المدونة العربية بكل ما فيه من اعتراف بالقوة الصينية العسكرية التي تركن إلى "الحوار والسلام" دوماً في تعاملها مع "الذات" العربية الإسلامية. وهي مواقف تسجل أن هذه العلاقة تأنس دوماً إلى عدم المواجهة، وإلى السلم والأمان، وإقامة العلاقات التجارية والسياسية والفكرية، وفق المصلحة، بعيداً عن المواجهات الدامية.

ومما يؤكد النظرة الإيجابية "للصين" نحو العرب قديما، ما أشارت إليه المدونة العربية فيما نقله "السيرافي" ٣٣٠هـ عن تاجرين من العرب الذين ارتحلا حدود عام ٢٣٧هـ، حيث يقولان :"**إن أهل الصين وأهل الهند يجمعون أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة، فأول من يعددون من الأربعة ملك العرب**"(١).

ولعل هذه الروح المتسامحة والمقدرة للعرب؛ هي من جعلت العرب والمسلمين المقيمين في "الصين" يشعرون بالأمن النفسي، ويتفاعلون مع الداخل الصيني، ويشاركونه أفراحه وأتراحه حيث يشير "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ إلى مشاركتهم في تشييع "القان" إثر حادثة من الحوادث، ويقول: "**وكان هذا اليوم يوماً مشهوداً لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء المسلمين والكفار**"(٢).

---

(١) رحلة السيرافي، ٣٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ١٥٥/٤.

ولا عجب في ذلك التفاعل بعد أن عاش المسلمون في الصين مكرمين، يمارسون شعائرهم، ويقيمون حياتهم وفق مبدأ التعايش والاحترام، حيث تكون لهم خصوصيتهم الدينية وتقديرهم يقول "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ: "**وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها،وهم معظمون محترمون**"(١).

ويبدو أن الحرية الدينية في "الصين" كانت مثالاً للأمن والتسامح في فتراتها التي أشارت لها المدونة العربية الأدبية، مؤكدة على أن هناك صلات فكرية تجمع "الصين" حينها بالعالم الإسلامي،مما يعزز فكرة الأمن النفسي الذي يشعر به المتلقي العربي حينذاك "للصين" حيث يقول "القلقشندي" ٨٢٠هـ عن عقيدة الصين في عهد "جنكيزخان" ما نصه: "**إن الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله تعالى، وأنه خلق السموات والأرض، وأنه يحيى ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع، وأنه على كل شيء قدير، وأن منهم من دان باليهودية ومنهم من دان بالنصرانية، ومنهم من اطرح الجميع، ومنهم من تقرب بالأصنام**"، ثم يقول: في لغة واضحة إلى هذه التعددية: "**ومن عادة بنى جنكيزخان أن كل من انتحل منهم مذهباً لم ينكره الآخر عليه**" ثم يضيف في المعنى ذاته: "**ومن طرائقهم أنهم لا يتعصبون لمذهب، وأن لا يتعرضوا لمال ميت أصلاً، ولو ترك ملء الأرض، ولا يُدخلونه خزانة السلطان. ومن عاداتهم أنهم لا يفخمون الألفاظ، ولا يعظمون الألقاب حتى يقال في مراسم السلطان "القان كذا" من غير مزيد القاب**"(٢).

إن في كل هذه الرؤى السابقة التي رصدتها المدونة العربية القديمة رحلية وغير رحلية ما يبعث على الحكم باطمئنان إلى أن العلاقة العربية الإسلامية الصينية عبر هذه المدونات كانت حافلة بالتقارب والتعايش والاحترام المتبادل،وهو ما منح المتلقي العربي الراغب في زيارة الصين أو معرفتها أمنا نفسيا مبنيا على هذه السلوكيات المحتفلة بحق الإنسان في الحياة الآمنة الهانئة بعيدا عن الصراعات والحروب،وبعيدا عن سؤال المذهب،وتنازع الأديان؛فلكل مقيم في الصين حقه النفسي والفكري والديني.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ٤٨٧/٢.
(٢) صبح الأعشى ٣١٠/٤ إلى٣١٢.

- **الرؤية الرحلية السعودية:**

واصلت الرؤية الرحلية السعودية الحديثة رصد ما بدأته المدونة العربية التأسيسية من خلال الاعتماد على الاحتكاك والزيارة والمشاهدة، بل إن الأمر ليعود أحياناً بالرحالة السعودي إلى استحضار بعض المواقف التي تشير إلى استمرار هذه العلاقة الإيجابية في أسمى تجلياتها وأكثرها وضوحاً في العصر الحديث، وهو ما تتبناه السياسة الصينية الحديثة حديثا، حيث يقول الرحالة السعودي "محمد العبودي" ١٤٤٣هـ،متناصا مع حديث "القلقشندي" سابقا :"**الحرية الدينية أو بالأصح التسامح الديني التي تعتبر أحد أوجه سياسة الانفتاح الصيني الحديث مع حرية نسبية مثل الحريات الفردية الأخرى، فالفرد حرف أن يمارس شعائر دينه التي تقتصر على الناحية الفردية المعتادة، ما دامت هذه الممارسة لا تتعارض مع سياسة الدولة مثل الصلاة في المساجد، والجوامع التي أعيد افتتاحها للمسلمين من بضعة أعوام**"[١] ويعود العبودي فيصرح بعد زيارته لمتحف "يوتشيو" وبعد أن يرى الخرائط التي تشير إلى جزيرة العرب، ويرى مجسم السفينة العربية، ورسما لمسجد "المنار" ومنارته الشامخة، ويلحظ وجود العملات العربية فيه، فيقول في كلمة له أمام جمع من المسئولين الصينيين وفي احتفال كبير: "**إنه قد لفت انتباهي الموقف الودي الذي أبرزه المتحف تجاه العرب والمسلمين خاصة في كثير من الرسومات والبيانات التاريخية فيه**"[٢].

ويستذكر الرحالة السعوديون هذه العلاقة الممتدة من التواصل والتقارب مع "الصين" عبر القرون، حيث يستحضر "محمد عبده يماني "١٤٣١ه "الصين" التي يقول عن علاقته بها منذ بواكير العمر،إذ يقول :" **قرأنا عنها ونحن صغار في رحلة ابن بطوطة، ولقائه بسلطانها العظيم، وما درسناه من حكمة مفكريها، وما اشتملت عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن السلوك**"[٣]. إنها الصين الحافلة بمكارم الأخلاق بدءا بملوكها،وانتهاء بمواطنيها،فهي تاريخ حافل من الحياة التي تحرص على زوارها ،وتعتز بمكارمها التي يشعر بها الزائر منذ القدم.

---

(١) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ٢١/١.

(٢) في جنوب الصين حديث عن المسلمين في ماضيهم وحاضرهم، ١٣٥.

(٣) قادم من الصين والإسلام بخير، ٨.

ويرى "عبد العزيز المسند" ١٤٢٨هـ انفتاح الصين الجديد؛ وعيا من إدارتها السياسية بأهمية الانفتاح الذي يعطي الأمن للراغب في زيارتها،حيث تفتح أبوابها لرؤوس الأموال التجارية والسياحية،وتمنحهم الأمان المشود،ويقول: "**وهذا الانفتاح في مصلحتهم فكل رؤسائهم يرددون ذلك**"(١).

إن هذه الحوارية وهذا الانفتاح على العالم وعلى جيرانهم العرب هو الذي جعل الرحالة السعودي "محمد عبده يماني" ١٤٣١هـ يؤكد على رؤية مستقبلية يدعمها الواقع، ترى أن التفاهم التاريخي السابق بين "الصين" والعرب سينتج إبداعاً من المسلمين الصينيين، ومن التجار الذين يعملون فيها، حيث ضمنت لهم الصين أمنهم واستقرارهم وحريتهم الدينية،فليس هناك بد من العمل في هذا الجو الآمن المستقر،ولا مناص من إسهام المسلمين ضمن منظومة العمل الكبرى في الصين، ويقول: "**إن الحكومة الصينية والحزب الشيوعي الصيني يضعان في اعتبارهما هدفاً استراتيجياً هو زيادة الإنتاج، وليس هناك دين على وجه البسيطة يقدس العمل الصالح المنتج ويحث عليه مثلما يفعل الإسلام**"(٢).

إن هناك نوعاً من الاقتراب النفسي الذي أشارت إليه المدونات العربية التأسيسية القديمة، وواصلته المدونة السعودية الحديثة، حيث مشتركات التسامح والتقدير والاحترام المتبادل، بل إن "محمد العبودي" ١٤٤٣هـ ليلمح إلماحة تاريخية قديمة وذكية،لهاأهميتها في القرب النفسي والمكاني مع "الصين" حين يستحضر مقولة الخليفة العباسي "المنصور" عندما قرر أن يبني عاصمته الجديدة، في "بغداد" وقال جملته الدالة الواعية المصورة لهذا القرب المكاني والنفسي مع الصين التي تعد ممولا أمينا وآمنا للعرب والمسلمين في تلك الفترة حين قال: "**هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا منها كل ما في البحر، فعبرت كلمته عن أن العلاقة بين الصين والعرب في أسرة تانغ الملكية ودية ووثيقة**"(٣).

---

(١) الصين يأجوج ومأجوج عالم مجهول، ٤٨.

(٢) قادم من الصين والإسلام بخير، ١١٧ – ١١٨.

(٣) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين، ٤٩/١.

كما يعد الرحالة ذاته "الحرير" الصيني، أول وأجمل الهدايا المقدمة من "الصين" إذ يقول: "**وكان العرب يحبون حرير الصين حبا جماً، فقد اكتشف في سنة ٨٣ ميلادية حرير الصين الخام في أحد القبور التدمرية القديمة، وهو حرير الصين أول وأجمل هدية قدمها الشعب الصيني للعرب**"(١). وطبعي أن العلامة السيميائية هنا تشير إلى أن الهدايا لا تكون إلا دلالة تقدير،وعلامة احترام جعل الرحالة السعودي الخبير بتراثه العربي ،والخبير "بالصين" التي زارها مرارا يتجه بقاموسه هذا الاتجاه الذي يؤكد عمق هذه العلاقة،وقرب الحضارتين من بعضهما،وهو ما يعد علامة أكيدة على الأمن النفسي والارتياح الذي شعر به العرب نحو الصين منذ قرون ماضية وإلى اليوم .

وحين يتجول العبودي في شمال الصين وجنوبها، ويرى منتجاتها التي تعيده إلى ذكرى العلاقة القوية التي ربطت العرب "بالصين" ينقل عن أحد مرافقيه الصينيين شهادة صينية على ارتياح الصينيين لهذا التقدير العربي ،وترحيبهم به، إذ ينقل عن "عبد الرحمن ناجون قوله": "**لقد أظهر العرب في الأزمنة القديمة إعجابهم بالثقافة الصينية وتقديرهم لها، ففي القرن الثامن وصل فن صناعة الورق إلى بلاد الخلافة، وأنشئ في مدينة بغداد المصنع الأول للورق عام ٧٩٤م**"(٢).

إن هذه العلاقة الصينية التاريخية الجميلة بين "الصين" والعرب هي ما جعلت أكثر الرحالة السعوديين زيارة لها، وأكثرهم تجوالا فيها وكتابة عنها، يُذَكِرُ في حديثه عن التاريخ المزدهر لهذه العلاقة، ببعض الحوادث الاستثنائية التاريخية التي تكشف الدور الحقيقي الذي يقوم به المسلمون الصينيون في الحياة الصينية،رغما عن الدسائس والاتهامات التي حاولت إيجاد مناخ من عدم الثقة بين الطرفين،ولكنها ما تخرج حتى تباد تماما بفضل حنكة القيادة الصينية،ومعرفتها بالتاريخ الجميل الذي يربط العرب بالصينيين، وهو التاريخ الذي لا تقف أمام حقيقته الماثلة للعيان أية قوى متآمرة ؛ حيث يشير إلى حادثة إصدر مرسوم –من قبل "الإمبراطور الصيني كانغ شي" الإمبراطور الرابع لأسرة تشينغ وهي الأسرة الأخيرة التى حكمت "الصين" –

---

(١) المرجع السابق، ٤٧/١.

(٢) المرجع السابق، ٧١/١.

يؤيد المسلمين بعد أن وردت وشايات عن بعض المسلمين الصينيين، فما كان من الإمبراطور إلا أن يتنكر، ويدخل مساجد المسلمين في "الصين"؛ ليطلع على ما يعملون في مساجدهم واجتماعاتهم بعد هذه الوشايات التي وصلته عنهم، فوجدهم يسلكون طريق الله، ويتواصون بالتواضع والتقوى وطاعة الأوامر، وتجنب النواهي، ثم يقول العبودي: "**فأصدر مرسوماً كتب في المسجد، وبعث إلى أنحاء البلاد تعبيراً عن تأييد المسلمين الذين يعتنقون دين الإسلام حينذاك، فتشجع به المسلمون في بكين وفي أنحاء البلاد، وقد رصدت حكومة تشينغ مبالغ باهظة؛ لترميم وتوسيع المساجد الأربعة المنتشرة في بكين**"(١).

ويجيب محمد العبودي ١٤٤٣هـ بعد أحد الاحتفالات عن أسئلة الصحفيين باعتباره "رئيس وفد رابطة العالم الإسلامي" ويشير في إجابته إلى هذا التسامح الجميل والعلاقة الوطيدة الممتدة على مر التاريخ بين الصين والعرب والمسلمين، ويقول: "**إن المواطنين الصينيين كانوا على مر العصور يعيشون إلى جانب مواطنيهم من أبناء المسلمين بمودة وانسجام وصداقة، ونحن نعتبر ذلك مدعاة لصداقة الصينيين للعرب؛ لأن إخواننا المسلمين هم أصدقاؤنا**"(٢).

ويتمثل العبودي ضمنيا "القرآن الكريم" في قوله تعالى :"**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**" سورة الرحمن، الآية ٦٠، وينبه المسلمين في "الصين" إلى أنهم مكون من مكونات وطن "الصين"، يجب عليهم أن يعملوا ضمن سياسة هذا البلد، ويوجه خطابه بكل صراحة إلى المسلمين في إحدى الاحتفالات الرسمية بحضور مسئولين من الحكومة ومن رجال الصحافة، ويقول: "**إن العمل على رفع شأن المسلمين في هذه البلاد من الناحية الثقافية ليس موجها بطبيعة الحال ضد ثقافة أخرى حديثة ،بل إن المسلمين يجب عليهم أن يتعاونوا مع إخوانهم في الوطن على ما فيه نفع الجميع، لأن هذا هو مقتضى الأوامر الإسلامية في تعمير البلاد، والسعي في تحصيل معايش الناس**"(٣).

---

(١) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ، ١/١٢٦.

(٢) المرجع السابق، ١/١١٦.

(٣) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ، ١/١٣١.

وهي إشارة ذكية إلى أهمية أن تنعم الصين بهذا الأمن الذي يراه العبودي،وأن يغلق أية شبهة قد يثيرها الراغبون في زعزعة هذا الأمن الوارف فيها عن طريق العرب والمسلمين؛فهو تعاون تفرضه تعاليم الدين، وتؤيده قيم الوفاء والمواطنة الصالحة التي رآها "العبودي" بعد أن قدمت "الصين" صوراً واقعية جميلة في هذا التسامح، مما رآه واقعيا، وقرأه في كتبنا العربية التي أشارت إلى: "**تسامح الصينيين مع المسلمين وتقديرهم لهم، وتمكينهم من بناء مساجدهم، وأداء شعائرهم بكل حرية**"(١).

إن بنيوية الخطاب فيما يتعلق "بالصين" الآمنة يتشاكل من المدونة الرحلية العربية القديمة والمدونة الرحلية السعودية الحديثة، وذاك يثبت أن بنية العقل العربي السعودي في التعاطي مع "الصين" كانت متسقة في خطابها الإشادي بها غالباً عبر النصوص السابقة.

لقد تبنت المدونة الرحلية وقبلت دون تعليق ما أورده "السيرافي" عن عقوبة السرقة التي رواها في فترته التاريخية وهي القتل، كما أشادت بالخطاب المتسامح، ونوهت بالآليات الصينية الأمنية الضابطة لحركة المسافرين، وتحميل أية سرقة يتعرض لها المرتحل من زوار "الصين" من ينزل عنده الرحالة المسلم، سواء أكان المكان النازل فيه التاجر "فندقاً" كما يسميه "ابن بطوطة" أوبيت مواطن صيني؛ إمعاناً في حفظ الحقوق، واحترام الزوار، والتأكيد على أهمية الأمن في الرؤية الصينية الثاقبة.

إن التأمل في الخطاب الرحلي في المدونة العربية الرحلية القديمة والسعودية الحديثة سيلحظ أن "بنية" التقبل الشمولي "للصين" باعتبارها نموذجاً للدولة الناجحة على مستوى أفكارها وممارساتها، وهي البنية التي تشكل موقفاً يتجدد مع كل سياق، والبنية بمفهوما هنا تعني الرؤية الإيجابية التي تنضبط "ذاتياً، ولكنها "تتحول" مع كل

---

(١) في جنوب الصين حديث عن المسلمين ماضيهم وحاضرهم، ٤٥.

سياق جديد توجد فيه، وهي بهذا تلتقى مع فكرة "رومان ياكبسون" عن "السياق والشفرة" ولكنه اتفاق –كما أشار البحث سابقا– من خلال بعد مضموني تضيف فيه الرؤية الحديثة شفرتها التي تختلف بها عن الرؤية السابقة، وفق سياقها الجديد،مع تغيير يتناسب مع المدونة المدروسة؛ لكيلا تلوى أعناق النصوص من أجل الالتزام الثابت بالنظرية التي تبحث في "الشفرة والسياق" من خلال بعد فني كما هو عند "ياكبسون"(١).

كما إن من الملاحظ في هذا المبحث أن "المدونة السعودية الرحلية" لم تشر إلى الإجراءات الأمنية التي أشارت إليها "المدونة التراثية الرحلية"!وغير خاف أن ذلك كان نتيجة الواقع الحديث الذي جعل الإجراءات الأمنية في دخول المسافرين، ومغادرتهم الدول أمراً ذا طبيعة عالمية متفق عليها غالبا؛ بفعل ما حققته التقنية والتطور الاتصالي، وهو ما لم يكن حين كان الرحالة المسلمون العرب يدخلون "الصين" فقد كان الأمر مختلفاً حين ذاك؛ فتوقفت "الذات المرتحلة" في المدونة التراثية أمام هذه الإجراءات، معترفة ضمنياً بتميزها وحضورها، وهو الإعجاب الذي سيعيدنا –سيميائياً– إلى أن نقرأ المشهد من خلال علامته المضمنة في "النسق المضمر" أو السيميائي الذي يعني غياب تلك الإجراءات في بلاد العرب حينها؛ مما يشير إلى فارق حضاري سجلته المدونة العربية بكل تجرد وإعجاب.

في حين أننا سنجد صدى الإشارات الأخرى التي لا تخص أمن المسافرين في المدونتين التراثية والحديثة، حيث تقدم المدونة الأولى تعظيم الصينيين لملوك العرب كما أورده "السيرافي"، ونجد صدى ذلك في المدونة الحديثة عند "محمد العبودي" وهو يتجول في "الصين" ممثلا لرابطة العالم الإسلامي التي تحظى بدعم المملكة العربية السعودية، وما يلقاه ومرافقوه من ترحيب في كل مكان يصل إليه،وهو ترحيب رسمي من قبل الحكومة الصينية التي تجدد هذا الاحترام والتقدير التاريخي، كما نجد صداه عند محمد عبده يماني ،وهو يذكر قراءاته في المدونات المختلفة عن حكمة "الصين"، ومكارم الأخلاق فيها، إذ المكارم هنا بنية تتعاقب بين المدونتين، لكنها تأخذ في كل سياق سمة جديدة تضيفها رؤية الرحالة.

---

(١) الخطيئة والتكفير، عبد الله الغذامي، ١١.

وحين يتحدث ابن بطوطة عن أن "الصين" من "آمن البلاد"، فإننا نجد البنية تتكرر في المدونة الحديثة سيمائياً عند "محمد العبودي" الذي يشير إلى خبر الخليفة "المنصور" وبنائه لبغداد، وأن كل ما يريده العرب والمسلمون سيأتي من "الصين" فلن يأتي منها شيء لو لم تكن آمنة.

وإذ تشير المدونة العربية القديمة إلى تكريم "الصين" للمسلمين، وأنهم معظمون محترمونكما نقل "ابن بطوطة"، فإننا سنجد ذلك في المدونة الرحلية السعودية الحديثة حيث إكرام الصين للسعوديين على نحو رائع كما مر بنا عند "العبودي والمعلمي" ويمكن أن نجد تناصا بين ما أشارت إليه المدونة العربية الرحلية القديمة من أن الصينيين لا يتعصبون لمذهب؛ فإن ذلك يمكن أن يقرأ –سيميائياً– بما قد وجدته "الذات" أو مرت به من التعصب في بعض نماذج ثقافتها، أو الثقافات الأخرى، حيث الانتصار للفكرة، أو المذهب إلى أن يصل إلى حد التفسيق والتجهيل! عند بعض النماذج. وبالتالي تصبح بنية التسامح التي رأتها المدونة الرحلية القديمة باعتبارها قيمة وهدية معنوية، تعود مرة أخرى في بنية المدونة الرحلية الحديثة؛ لتكون هدية حسية حينما أهدت "الصين" العرب "الحرير" وهو أثمن الهدايا كما يقول "العبودي" في المدونة الحديثة، كما أهدتهم صناعة "الورق" وهي الهدية الأخرى الثمينة جداً في بحر هدايا "الصين" ليس للعرب فقط، بل للأمم الأخرى أيضا، وهي هدايا تتفق من خلال الرؤية "السيميائية" أيضا، "فالتسامح" الذى رأته المدونة الرحلية القديمة هو الهدية المعنوية، و"الحرير" هو الهدية الحسية الناعمة التي تتماثل بوجه ما مع الحرير الذى يَلْمِسُ ولا يخدش، وهو ذاته "التسامح" الذي يَعْرِفُ ويناقش ويتقبل، ولا يرفض أو يتعصب. وهو "الورق" أيضا الذى يتيح الكتابة بكل سلاسة، ويمنح الكاتب الحرية في الحركة على صفحات الورق، كما يتيح التسامح للإنسان أن يقول رأيه بكل تجرد، مثلما تتيح "الصين" لزائرها أن يسير فيها بكل أمان وحرية.

إن سيمائية الرؤية الرحلية للتسامح الصيني لم تكن رؤية مجردة ،آمنت بها "الصين" في مدوناتها المكتوبة فقط، بل إن هذا التسامح جاء من خلال العمل الواضح للعيان، سواء في المدونة الرحلية القديمة، أو المدونة الرحلية السعودية؛ ولذا تعمد المدونتان إلى تسجيل ذلك، وتكراره، بدءاً من حوار الملك مع "الإسكندر" وحواره مع وفد "قتيبة بن مسلم الباهلي" في أوضح لقاءات المواجهة العسكرية بين الحضارتين أو القوتين التي انتهت قبل أن تبدأ؛بسبب حوارية التسامح والإقناع التي تبنته القيادة الصينية على المستوى السياسي، وانتهاء بنماذج من هذا التسامح العملي في المدونة التراثية عند "ابن بطوطة" حيث المسلمون ليسوا فقط معظمين محترمين عند الصينيين، بل لهم خصوصيتهم الثقافية التي لا تتعارض مع منظومة المجتمع الصيني؛ فلهم في كل مدينة إمام، وهو الأمر الذى يعيد التذكير به "محمد العبودي" في الرحلة السعودية الحديثة؛ حيث التسامح مع المسلمين في أداء شعائر دينهم كما تبنته الدولة الصينية الحديثة.

وتؤكد المدونتان ضمنياً على أن "الذات" تتقبل هذا النموذج الصيني الذي منحها الأمن، وقدم لها الحرية فيما يتعلق بمكوناتها الثقافية الفكرية، وتبادله هذا العطاء بعطاء آخر، يتمثل في التزامها ومشاركتها في كل ما تفرضه المواطنة الصالحة، حيث يشير "ابن بطوطة" إلى أن المسلمين شاركوا في جنازة الملك الصيني، وهي علامة وعي تدل على احترام "الذات الإسلامية العربية" لشروط المواطنة والإقامة وأدبياتها. كما أنها البنية التي أشارت إليها المدونة الرحلية السعودية الحديثة عندما يشير "العبودي" إلى حدث تاريخي تمثل في فعل الوشايات المضادة للمسلمين والتي تأكد الملك من كذبها، وأمر ببناء المساجد، وهي إشارة تاريخية مهمة، لكنها تتحول أيضا ولدى الرحالة ذاته إلى توضيح أن العمل في تثقيف المسلمين الصينيين بأمور دينهم لا يعني أن ذلك موجه ضد ثقافة أخرى، وهو استباق ذكي من رحالة وداعية ومسئول سعودي، يقطع الطريق أمام أية تأويلات، أو وشايات مغرضة تسيء إلى العلاقة بين البلدين أو الثقافتين، كما حاولت الوشايات الأخرى ولم تنجح بفضل وعي القرار السياسي الملكي الصيني حينها، وحكمته وأناته، وعدم تسرعه مما منح العلاقة بين الثقافتين قوة وتجدداً كما سبق ذكره.

إن العلامات السيميائية لتشير إلى أن قيم التسامح والحوار والتقبل والتفاعل الصيني مكونات رئيسية من مكونات "الأمن النفسي" الذي لا يقل أهمية عن "الأمن الحسي" الذى نجحت الصين في وضع وتنفيذ مجموعة من الآليات التي تضبط الحالة الأمنية حيث :"التسجيل والتصوير والضمانات والمساءلة" بيد أن "الأمن النفسي" هو الذى يمنح المختلف ثقافياً حريته في مسلكه الديني التعبدي، ونظام حياته ،دون الإضرار بمنظومة السمات العامة، والمبادئ الكبرى للحضارة الصينية الممتدة. بل إن ذلك مما شجع التجار العرب والمسلمين وغيرهم على القدوم إلى الصين، والاستفادة منها وإفادتها، وهو ما حرصت "الصين" عليه بوعي كبير، وفلسفة ذكية في عصور مختلفة، ليس مع العرب والمسلمين فقط، بل ومع الأمم الأخرى.

إن النجاح "الأمني: الحسي والنفسي" الذي تمنحه "الصين" للمواطن والمقيم والعابر والتاجر والمستكشف صنع –دون شك– نجاحاً سجل ضمن نجاحات "الصين" المتعددة، وهو النجاح الذى نظَّرت له عبر الرؤى التشريعية منذ القدم، وطبقته القوى التنفيذية، ورعاه المواطن الصيني في فترات حضور وازدهار الحضارة الصينية. وهي فترات كثيرة وممتدة عبر التاريخ، ولازالت إلى اليوم، كما تشير المدونة الرحلية السعودية.

ومع ذلك فلابد من التذكير هنا بأن الإشارات التي وردت سابقا حول "الصين" الآمنة كانت تخفف من البعد غير الإيجابي أحيانا الذي يرد في المدونة العربية عن بُعْدِ "الصين" جغرافيا وهو البعد الذي قد يكون ولد في نفس المتلقي صورة غير إيجابية عن "الصين" ،وبخاصة في بعض المقولات والقصائد والمقطوعات الشعرية التي أشارت إلى هذا البعد. ويبدو أن حفظ الذاكرة العربية لمقولة: "اطلبوا العلم ولو في الصين" وهي ما يجعله بعض المتلقين حديثا، وليس بحديث ثابت، فقد قال عنه البيهقي :"هذا حديث متنه مشهور وإسناده ضعيف ،وقد

روي من أوجه كلها ضعيف "[١] بيد أنه كان وما يزال قارا على الألسن، محفوظا في الذاكرة، وهي مع ذلك دلالة ظاهرة على طلب العلم في أي مكان؛ حتى ولو كان بعيداً جداً،ودلالة سيميائية تدل على أن اختيار "الصين" تحديداً يدل على تميزها وحضورها العلمي والحضاري.مع أن البعد مظنة الخوف،وعدم الأمن،والاتجاه نحو المجهول في الذاكرة الإنسانية.

إن المتلقى العربي كان يستقبل مثل هذه الأقوال، ويقارنها بما تبعث به "الصين" من منتجات صناعية متميزة، كما مر ذكره، ويحفظ ويقرأ في مدونته الشعرية هذا التميز، وهذا البعد أيضاً، وهو ما شكل لديه موقفا بين "الصين" البعيدة بمكانها، القريبة بمنتجاتها التي تدل على أمنها واستقرارها ورخائها. وكان الشعر العربي مساهماً في رسم هذه الصورة البعيدة "للصين" استنادا إلى هذه المقولة الآنف ذكرها، لكنه البعد الإيجابي أيضا الذي يربط الصين بالجودة والنماء والتميز؛ "فالأحوص الأنصاري" ١٠٥هـ لا يجد خيراً من أن يرثي ويثني على "ابن حرب" ويعني به "أبا سفيان" بأنه كان يجلب مقتنيات غالية من الصين، ويوصلها للعرب والعجم حين يقول:

أين ابن حرب وقوم لا أحسهمُ ... كانــوا قريباً علينا من بني الحكم
يجبون ما الصين تحويه مقانيهم ... إلى الأفاريق من فصح ومن عجم"[٢]

وتغدو الصورة هنا ماثلة لهذا البعد المكاني "للصين"، إذ يأخذ الممدوح بعض مزاياه من إحضاره السلع والهدايا، وليس الإحضار فقط ولكنه يحضره من "الصين" وهي "الصين" الحاضرة بمنتجاتها الرائعة في ذهن المتلقي العامرة والآمنة والمعطاء.

---

(١) شعب الإيمان،١٩٣/٣.
(٢) شعر الأحوص، ١٥٤.

ولا يجد الشاعر "أبو نواس" ١٩٨هـ أفضل من المسافة بين "نسا والصين" لبيان سعة خطوات فتاته "بنان" على نحو من الهجاء الطريف الظريف، الذي يأتي حاملاً وجهين من التأويل، ومن خلال المفارقة الطريفة:

وأقرب الناس في الخطى خفراً ... خطوتها من نسا إلى الصين[١]

وإن كانت الصورة تحمل المبالغة هنا، الا أن ذلك يعني أن "الصين" وإن كانت حاضرة بمنتجاتها، وبإبداعها إلا أن هاجس البعد المكاني كان مؤثرا على بعض الرؤى الشعرية، وهو تأثير كان له ما يبرره في العصور القديمة، التي كتبت فيها هذه الأبيات إلا أن هنا ملمحاً سيميائياً يمكن الإشارة إليه، وهو أن استحضار "الصين" وإن كانت بعيدة فإنه يدعم الصورة التي يريد الشاعر إيصالها؛ فالشعر مبني على المبالغة، وإذا كان الأمر كذلك فإن استحضار "الصين" باعتبارها الحضارة العريقة التي تصنع وتبدع؛ سيسهم في خلق جو من الدهشة التي لا تستند فقط على البعد المكاني بل وعلى البعد الغرائبي المدهش التي تمثله "الصين" في الذاكرة العربية.

ومن هنا كان استحضار "أبي تمام" ٢٣١هـ لهذه "الصين" العظيمة، وهو يمدح ممدوحه بأن له القدرة والمكانة على إحضار خصمه، ولو كان في "الصين" وغير خاف أن المادح هنا يريد دون شك أن يصل إلى إقناع الممدوح وهو "الأفشين" بجمالية هذه الصورة التي يطرزها، ويزيد من دهشتها حضور الصين:

هيهات لم يعلم بأنك لو ثوى ... بالصين لم تبعد عليك الصين[٢]

والشعر مبني على المبالغة وربما يمكن أن نلمح هنا بعدا علاماتيا يدل على أن "الصين" تحضر في ذهن المتلقي والمادح والممدوح بلدا آمنا مستقرا؛فهروبه خصم "الأفشين" إلى "الصين" الآمنة يعني سهولة القبض عليه؛وذاك يتأكد إذا ما تذكرنا ما سبق عرضه من تقنيات أمنية تصويرية دقيقة لدى الصينيين.

---

(١) ديوان أبي نواس، ٧٠١.
(٢) ديوان أبي تمام، ٣٦/٣.

وليس الخطاب الشعري "الهاجي" بعيداً عن الخطاب الشعري "الراثي والساخر والمادح"، "فابن الرومي" يقف وقفة تتلبس بالمنطق مع رجل منان متجاوز يمن على "ابن الرومي" بكرائم لم يعطها،وأفضال لم يعملها! ومع ذلك فإنه هذا المنان ينظر "لابن الرومي" ٢٨٣هـ نظرات المعطي المنان الذي كأنه قد ضمن له أن يرد له شبابه، أو أن يدفن له بحر "الصين" أو يزيل جبلي :"أروند أو ثهلان"، يقول:

كأنما كنت تضمنـــت لي ... رد شبابي كالذي كانـــا

أو طم بحرالصين في طرفة ... أو كسح أروند وثهلانها (١)

إن الصورة هنا تحمل مبالغة شعرية مقبولة في عالم الشعر، ذاك أنها توضح ما عاناه الشاعر من "منّ وأذى"، من هذا المخاطب، وكأنه قد ضمن له من شدة منّه، أن يرد شباب "ابن الرومي"، أو أن يدفن له بحر "الصين" أو أن يزيل جبلى "أروند وثهلان" واستحضار صورة "الصين" هنا استحضار موفق؛ لإيصال الصورة التي يريد إيصالها عن "منّ وأذى" هذا الرجل، وكأنه سيصنع المستحيلات في أبعد وأشسع المسافات. ويمكن أن نجد في استحضار بحر "الصين" هنا علامة سيميائية على توظيف أكثر الأماكن استحالة؛لأنها أكثرها أمانا؛ فالمهجو هنا يمن على الشاعر، وكأنه ردم بحر "الصين" له، وهو بحر وإن كان كبيرا ومتسعا وبعيدا، إلا أنه آمن أيضا بفعل قدرة "الصين" العظيمة عددا وعدة على أمنه وسلامته.

ويأتي "البحتري" ٢٨٤هـ طالباً العون من ولى عهد الخليفة الذي وصلت أفضاله وكرم عطاياه إلى "الصين" فلعلها تصل البحتري:

لعــل وليَ العهدِ يأخذ قادراً ... بحق معنىّ مكــدياتٌ مطالبُه

فإن الذي بين المدائن قاطعاً ... إلى الصين عرضاً سيبُه ومواهبُه (٢)

---

(١) ديوان ابن الرومي، ٦/٢٥٣٣.

(٢) ديوان البحتري، ٢/٢٢٠.

البيتان يصوران بدءاً رغبة الشاعر في عطاء "ولي العهد- الموفق بالله" شاكيا حاله، متطلعاً أن يشمل هذا الكرم الذي يبعث به "ولي العهد" إلى أبعد النقاط وهي: "الصين" ولئن كان هنا يتحدث عن "البعد المكاني" "للصين" إلا أننا يمكن سيميائيا أن نستشف علامة إيجابية مستوحاة من البيت الثاني، فإذا كان فضل وهدايا "ولي العهد" تصل إلى "الصين"؛ فإن ذلك يعني أن هناك تواصلاً سياسياً واجتماعيا إيجابيا غاية الإيجابية مع "الصين"، تبنيه صلات من الود والهدايا والعطاء المتبادل، وإلا فلا يمكن أن يُظن أن الشاعر كان سيقول هذا دون وجود هذه الصلات، وهي صلات سياسية واجتماعية،كما أن الشعر مبني على المبالغة فكأن الشاعر يستحضر البلد الأكثر رفاهية وغنى وأمنا؛ ومع ذلك يصل سيب وعطاء الممدوح إليها؛فلن يعدم البحتري أن ينالها وهو القريب من ولي العهد.

ومن صلات العطاء الحسية التي تصل "الصين" إلى الصلات الدينية عند الشاعر "سعد الصيفي التميمي" ٥٧٤هـ الذي يقول معتذراً، اعتذار المضطر الذي فعل فعلاً لم يكن يستطيع منه فكاك،حين مدح غير "الخليفة"، ومع ذلك فلم يمنحه هذا الممدوح شيئا! ويدخل إلى الشعر فلسفة خاصة تقوم على المنطق والحجة؛ ليصل إلى إقناع الخليفة، فلم يكن إعراضه عن مدح "الخليفة" ناتجاً عن قلى وجحود، ولم يكن بُعْدُه عن حضور مجلسه علامةَ سخطٍ أو تذمر، بل كان بعيداً عنه شيمة لنفسه، وإعزازاً لها، مع حبه للممدوح وإجلاله له،فهو يحبه وفاء وإن كان بعيدا عن مجلسه، يقول:

ومدح غيرك منى كان عن حرج ... قد يحمد الرّشْفَ ممنوعٌ من النَهَلِ
وللفتى حالةٌ تنضوه شيمته ...رغما وما كل إعراضٍ من الملل
إن الصلات لبيت الله ماضيةٌ ... من عــازب ببلادِ الصينِ معتزلِ[١]

(١) ديوان سعد بن محمد التميمي "الحيص بيص" ٢٣٨/١.

فمدح غير الممدوح كان اضطراراً ولم يحمد عليه، ومع ذلك فللفتى حالات ينعزل فيها ليس مللاً من أحد، فربما يعتزل الإنسان وهو يدعو لمن اعتزل عنهم وابتعد، فالصلات تصل إلى بيت الله من إنسان معتزل الناس، يتعبد الله في "الصين". والصورة واضحة في نهجها المدحي الذي يحاول من خلاله بيان الصورة الاعتذارية على نحو من المنطق الموضوعي الذي يصاغ في صورة شعرية جميلة، بيد أن العلامة السيميائية هنا والتي يمكن الإشارة إليها هي وجود هذه العلاقات الدينية، والصلات الروحية التي تربط بين الصينيين المسلمين الذين يتوجهون إلى بيت الله الحرام، في صلاتهم ودعائهم وحجهم وعمرتهم وصدقاتهم، وهي الصلات التي أشار إليها الشاعر؛ اعتماداً على سياق يشير إلى صلة دينية وثيقة تربط الإنسان، وإن شط مكانه، وبعد مزاره. وهنا وإن كان الأمر في ظاهره بعدا مكانيا؛ إلا أنه قرب نفسي وروحي يختصر المسافات، ويقرب المتباعدات.وهي إشارة سيميائية عميقة إلى أمن وارف في "الصين" حيث العابد الداعي في معتزله "بالصين" يدعو الله ويناجيه ويتقرب إليه في جو آمن،بعيد عن كل توتر أو خوف.

وتستدعى المدونة العربية الشعرية القديمة هذا البعد المكاني ضمن مناجاتها الخاصة، وهمومها الذاتية التي تعبر عن سوء الطالع، ونكادة الحظ، وقلة التوفيق، وهي صورة تأملية باكية آسفة لما يكون عليه واقع الإنسان، وما يطمح إليه، يقول "بديع الزمان الهمذاني" ٣٩٨هـــ:

من عاذري من همة فوق السها ... شرفاً وحظي في الحضيض المحرجِ
صيتٌ وراء الصينِ واسمٌ فوقَه .... بعداً وجسمٌ بين ثوبْي محــوجِ (١)

إن شهرة الشاعر وصيته ليصلان إلى "الصين" وما وراءها، ومع ذلك فإنه لم يجد الحظ والتقدير اللازم لمن هو مثله في بيئته. واستحضار "الصين" هنا علامة ولا

(١) ديوان الهمذاني ، ٥٢.

شك على البعد المكاني بيد أنها تشير أيضا ،إلى أن مجرد حضور اسم الشاعر في دولة عظيمة مثل "الصين" فهذا يعني بالضرورة أن هناك موقفاً نفسياً إيجابيا نحو هذه الدولة واعتقاد داخلي بأن وصول الاسم إلى "الصين" تأكيد على تميز الشاعر، وشيوع موهبته، وتميز عطائه الشعري الذي لم تحده البلدان العربية والإسلامية!بل تجاوز ذلك إلى أن وصل إلى "الصين"، وهي الدولة والحضارة التي تعطي الأحقية والتميز لمن يستحقهما، فمن وصل إليها بشعره وأدبه؛ فلا شك في تميزه وحضوره!وأنت واجد هنا أن "السيميائية" تأخذنا إلى علامات أبعد؛ حين نتأمل الأبيات الشعرية، ونتوقف أمام دلالاتها المضمرة، حيث وجود تفاعل من نوع ما مع الأدب والفكر بين المبدع العربي وهذه الحضارة الصينية البعيدة مكانا، القريبة في فهم وتقدير الإبداع والفن، فمن وصلها صوته وشهرته من الشعراء فقد حقق المجد، وبلغ المراد؛ مما يشير إلى أن البعد المكاني، وإن وظف توظيفاً للمبالغة في البعد، إلا أنه يعود ليؤكد من طريق آخر هذا الاقتراب والتفاعل بين المكون "الهمذاني" الفني ووصوله إلى "الصين" أرض البعد، ولكنها أرض الاعتراف بالفن وتقديره؛ فزامر الحي وإن لم يطرب حيَّه، ولكنه يطرب "الصين" المحتفلة والمقدرة للفن وأهله.وغير خاف أن تقدير الفن والاحتفاء بأصحابه،وتقديرهم لا يكون إلا في بيئات آمنة مستقرة.

على أن "الصين" تحضر أحيانا من أجل تصوير البعد المكاني؛ لتزيد المعنى تأكيد وحضوراً في ذهن المتلقي، وكأنها أصبحت الأداة المناسبة لإيجاد المقابل المكاني للهموم الذاتية والتأملات الوعظية، واللواعج الوجدانية، التي يريد الشعراء إيصالها للمتلقين، على صورة من التكثيف الشعري، حيث إنها تغني الصورة الشعرية في جانبها الإقناعي الذي يطمح إليه الشاعر، وهو ما يتجه إليه خطابان شعريان يتجهان إلى نوعين متقابلين من الموضوعات الشعرية، أحدهما وعظي إرشادي، والآخر غزلي وجداني، مما يعني أن استحضار "الصين" هنا لا يتعلق بموضوع دون آخر، بل هو استحضار تحكمه الرؤية الشعرية التي تراه مكاناً مناسباً ، وتبقى دلالات استحضاره السيميائية قائمة ولا شك.

يقول "محمود الوراق" ٢٢٠هـ وهو يرسل حكمة تدعو إلى أن يثق الإنسان بأن رزقه سيأتيه قطعاً، فليس عليه أن يمضي حياته متألماً على ما لم يحصل عليه، أو يجعلها في حرب دائمة وسعي غير مشروع؛ لطلب هذا الرزق، حين يقول عن هذا الإنسان التائه الطامع في أن يأتي رزقه من بعيد، ولم يعلم بأن رزقه المقدر له في بيته:

ويفنى ولم تفن آمـالُه ... وإعمالُه سـوفَ إلى ليْتهِ

وكم أزعج الحرصُ من راغبٍ ... إلى الصينِ والرزق في بيتهِ (١)

إن الصورة لتبدو صورة مثالية للإقناع الوعظي، الذي يستثمر طاقة الفن في إيصال الصورة المرادة هنا، وذاك لا يعنى المبالغة بقدر ما يدعو للتأمل والنظر، وإنعام وإمعان الفكر في دلالات الصورة التي تعتمد على المفارقة الجميلة، والصدمة المفاجئة في نهاية البيت.

إن ضياع عمر الإنسان في الأفكار وحسابات المستقبل وتأمينه، وفرض ذلك على حياته سيفقدها ولا شك الاستمتاع بالحياة الآنية، دون أن تحقق له هذه الأفكار شيئاً مما يريده، ولا يعني ذلك قطعاً صرف جزء من حياة الإنسان لمخططاته الاقتصادية فذاك عين العقل والوعي،ولكن الإشكال الذي يحذر منه الشاعر هو الانسياق الكلي، ذاك أن هذا الانسياق سيأخذ من صحته وسعادته، حيث سيفنى ولم تفن أو تنتهى آماله! وسيتوقف عن الحياة وهو لا يزال يخطط لمستقبل لم يأت وربما لن يأتي! حيث تأتى الأداتان "سوف" و"ليت" لتؤكدا هذا المعنى الضائع للعمر الإنساني، تحت ضغوط المستقبل "سوف أفعل ..." أو تحت ضغوط الماضي "ليتني فعلت" ثم تأتي الدلات الصادمة والمفاجئة أن الإنسان ربما يخطط لرزق بعيد، وهو لا يعلم أن رزقه قريب جداً منه، إنه يخطط لزيارة "الصين" البعيدة الراسخة تجارياً وحضارياً،ليكتسب من تجارته فيها، وهو لا يعلم أن رزقه في بيته، ولا شك أن استحضار "الصين" هنا وإن كان استحضاراً للبعد المكاني، وتجسيداً لما أراد الشاعر من رسم هذه الصورة المفارقة الدالة بين "الصين" من جهة وبين الإنسان وبيته من

---

(١) الديوان، ٩٣.

جهة أخرى، إلا أن هناك علاقة سيميائية ستكشف لنا أن "الصين" حاضرة في ذهن الشاعر، باعتبارها البلد الحضاري البعيد جغرافيا، ولكنه الحاضر تجارياً وحضارياً، وهي "الصين" التي تعني الحصول على الرزق، والتي تمنح العاملين والمجتهدين في تحصيل رزقهم، وهي قطعا لن تكون في ذهن الشاعر ومتلقيه بهذا المعنى دون أن تكون بلدة آمنة مطمئنة؛ لأنها بلد الأماني وتحقيق المكتسبات، ومطمع الحالمين بالثراء وسعة الحال .

وتأتي الصين البعيدة جغرافياً عند إمام الغزل العفيف، وأديب العربية المعروف الذي كتب كتابات نثرية وشعرية مشهورة عن الحب، ولواعجه وآهاته، مع أنه الفقيه الورع، حتى غدت كتاباته الوجدانية الصادقة مثالاً لغزل الفقهاء الأدباء، يقول "ابن حزم الأندلسي" ٤٥٦هـ وهو يتحدث عن البين والبعد والفراق:

أرى دارها في كل حينٍ وساعةٍ ... ولكنَّ من في الدار عني مغيْبُ

فيالك جار الجَنْبِ أسمعُ حِسَّه ...وأعلم أن الصين أدنى وأقربُ[1]

إن "الصين" هنا على عكس المدونة الشعرية السابقة، تأتي الصين القريبة لا البعيدة "الصين" التي تقترب من الشاعر؛ لتكون أقرب إليه من محبوبته التي تعيش في البيت المجاور له، ولكنه القرب المكاني لهذه المحبوبة، والبعد النفسي لها.

إنها قريبة المكان، ولكن دون قدرة على الوصول إليها، فهو مستحيل من المستحيلات التي يراها الشاعر ويقررها، ويزيد في بيان صورة بعدها أن "الصين" على بعدها المكاني أقرب للشاعر من محبوبته المحتجبة عنه، وربما كان استحضار "الصين" هنا لبعدها المكاني، وقربها النفسي، فهي البعيدة مكانا لكنها الأقرب صلة وتواصلا وعطاء، حيث العطاء الحسي والمعنوي، وحيث البلدة الآمنة التي تأنس النفوس بقربها، وتستغني بعطائها مع بعدها.

لقد ارتسمت "الصين" في المخيلة الشعرية العربية القديمة عبر مدوناتها الشعرية بلداً بعيداً في نسقه الظاهر، قريبا في نسقه المضمر، بلدا آمنا مطمئنا، يمنح ويعطي ويقترب على بعد المسافة، وطول المسار.

---

(١) طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ٨٢.

الصين العادلة

١- الرؤية التأسيسية:

تأتى قيمة "العدل" عند الصينيين قيمة أساسية في نظام الحكم لديهم،وهو ما تسجله "المدونة العربية قديما والسعودية حديثا" حيث تتعاضد فيها الآراء والنقولات؛ مؤكدة على هذه القيمة الكبرى. ولن يكون غريباً أن المدونة الدينية تتفق مع المدونات الأدبية والرحلية في ذلك؛ إذ يفسر تفسيرٌ من أوائل تفسيرات القران الكريم، وهو تفسير :"مقاتل بن سليمان" ١٥٠هـ الأمة المهتدية في قوله تعالى: "ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون"، بقوله: "**يعنى الذين من وراء الصين اليوم**"(١).

إن الإشارة هنا إلى ما وراء "الصين" تفتح الباب واسعا أمام حضور "الصين" في هذا الميدان الإنساني الجميل، بعد هذه الإشارة التفسيرية المهمة التي يؤكدها المفسر الطبري ٣١٠هـ بنقله عن "ابن جريج" قوله: "**بلغني أن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم كفروا، وكانوا اثني عشر سبطاً، تبرأ سبط مهم مما صنعوا، واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هنالك حنفاء مسلمون، يستقبلون قبلتنا**"(٢).

وليس المجال هنا مجالا لتتبع صحة القصة بقدر ما هو التأمل في ربط العدل بما وراء "الصين"، وكأن "الصين" حافظة لهذا الأمر مدافعة عنه، مقتنعة به، وهي الدولة العظيمة القادرة على إزالته، ولعل النقول القادمة تكشف وتؤكد حضور العدل الصيني، وتجليه في المدونة العربية القديمة والسعودية الحديثة .

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ٦٨/٢

(٢) تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القران ١٧٣/١٣

إن ذلك إشعار منذ بدايات المدونة العربية القديمة بالانفتاح والثناء على "الصين" وما خلفها، وإذا كانت "الصين" تحضر في الذاكرة العربية مثالاً للبعد المكاني: "اطلبوا العلم ولو في الصين" فإن هذه الإشارات في التفسيرات القرآنية تعطى انطباعا إيجابياً نحو "الصين" وإن كانت غير مقصودة هنا تحديداً، لكن ذكر اسمها يمهد لنقولات المدونات الأخرى التي تشير إلى عدل "الصين" وهو ما نجده بالفعل في المدونات الأخرى، بدءاً من المدونات التفسيرية الدينية حيث يستحضر "الزمخشري" ٥٣٨هـ "الصين" ومعاقبتها للزناة المعتدين على حقوق غيرهم، والمستغلين للمرأة أبشع استغلال؛قياما بالانتصار للمرأة وحقها،ورغبة في قيام العدل،وذلك حين يفسر قوله تعالي: "**ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق**" الأنفال، الآية ٥٠، فيقول: "**بلغني عن أهل الصين أن عقوبة الزاني عندهم أن يصبر، ثم يعطى الرجل القوي البطش شيئاً عُمِلَ من حديد كهيئة الطبق فيه رزانة وله مقبض فيضربه على دبره ضربة واحدة بقوته، فيجمد مكانه**"[١].

إن مثل هذه النصوص الدينية التي تسطر في مدونات لها مكانتها الدينية والأدبية والتاريخية في الثقافة العربية الإسلامية لتؤسس لرؤية "الصين" التي حضرت في هذه المدونات مبكراً، وهو ما يجعل من هذه الإشارات تأكيداً على البنية المتقبلة المتجاورة مع "الصين" في هذه الذهنية،والتي تجعل من الحوار معها ممكنا،وتزيل كل علامات الحيرة أو التردد إزاءها، وهي مدونة تعي أن في مرجعياتها الفكرية الفقهية ما يشبه ذلك .

إن الرؤية الدينية هنا تهدم حاجز البعد، وقلق الاختلاف، وحذر المواجهة، ولم يك غريباً بعد ذلك أن تتحول النظرة "البنيوية الشمولية" تحولات جديدة في الرؤية من خلال "التحول " باعتباره هنا مفهوماً بنيوياً يقوم بهذا التحول على مستوى الخطابات الأخرى أدبية ورحلية، ويكون لكل خطاب شفرته التي تنأ به عن مآزق تكرار السياق السابق، وفق الرؤية التي افترضها البحث سابقا والتي تقوم على النظر إلى "الشفرة"،لا باعتبار القيمة الفنية كما عند "جاكبسون" بل باعتبارها تحولاً جديداً

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ٤١٧

لكل رؤية لاحقة عن الرؤية السابقة، تضيف عليها جديدا،وتمنحها إضافة خاصة بها. حيث يورد "ابن قتيبة الدينوري" ٢٧٦هـ وهو الأديب والناقد والمرجعية البيانية المهمة في التاريخ الأدبي النقدي العربي، قصة مقام رجل من الزهاد بين يدي الخليفة العباسي "المنصور" حيث يسمع الخليفةُ الرجلَ يدعو الله أن يزيل الظلم وينشر العدل! فيستدعيه "المنصور" ويسأله عن سر دعائه ، فيطلب الرجل الأمان من المنصور! ولما أمَّنه أخذ يبين له ويصارحه في النصح، ثم يورد له قصته في "الصين" حين أصيب ملك "الصين" في سمعه، قائلا: "وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين، فقدمتها مرة وقد أصيب الرجل بسمعه، فبكى يوماً بكاء شديداً ! فحثه جلساؤه على الصبر فقال: أما إني لست أبكي للبلية النازلة بي، ولكني أبكي لمظلوم بالباب يصرخ ولا أسمع صوته، ثم قال :أما إن ذهب سمعي، فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس ألا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره، وينظر هل يرى مظلوما"[١].

إن قراءة القصة ضمن سياقها البنيوي التكويني تشير إلى تأكيد مبدأ الشمول في نظرة المدونة العربية التراثية "للصين" مع مبدأ "التحول" البنيوي أيضا الذي جعلها تسير وفق الانضباط الذاتي البنيوي في الذاكرة العربية المصورة "للصين" حيث تنطلق القصة إلى السياق الذي سبقها في ذكر "الصين" لكن شفرتها تكمن في إيراد قصة ملك "الصين" وهي إضافة مهمة تميز الشفرة عن السياق السابق. ويمكن في الوقت ذاته يمكن أن تفتح لنا هذه الشفرة المجال لتأويلات واعدة إذا ما أخذت وفق "السيميائية" التي تشير إلى هذه الحوارية المتقبلة "للصين"من خلال المرسل: "الرجل" والمستقبل:"الخليفة" مما يعني أن البنية الدينية والبنية السياسية تتفقان على أن نموذج "الصين" العادلة نموذج حاضر بكل شفافية في سياقاتها الحوارية، لم تقمعه السلطة السياسية؛ لقناعتها به،ولم تخفه البنية الاجتماعية الدينية لإيمانها به،حيث قدمته بكل شفافية للقيادة السياسية حينذاك،فقد أوردته وأيدته واستشهدت به،وقبلت به السلطة السياسية عبر الخليفة "المنصور".وتبقى العلامة السيميائية الأهم في ربط "الصين" بالعدل في المدونة، وما يعنيه ذلك من قبول جمعي لهذه الصورة الباهية.

---

(١) عيون الأخبار، ٣٣٥/٢

وهو ما يدل على أن هذا الاستقبال المرحب "للصين" وقصصها ومآثرها السياسية والتشريعية؛ ليدل على أن هناك تاريخاً من الحضور البهي "للصين" في الذاكرة العربية، وهو ما تؤكده كتب التاريخ، وتستحضر بعض قصصه المبكرة جداً.

وسنحتضر هنا القصة السابقة التي أوردها التنوخي ٣٨٤هـ والتي تحيل إلى الوعي السياسي الصيني المتسم بالقدرة والقوة وبعد النظر،وتقديم مصالح السلام على مآسي الحروب،حيث يورد قصة "الأسكندر" ونيته غزو "الصين" وحين علم ملك "الصين" بذلك قرر الذهاب إليه، متنكرا في صورة رسول للملك الصيني،وحين لقيه وأصبحا منفردين؛ أخبره بأنه ملك "الصين"دعاه للسلام، ولما استجاب "الأسكندر"بعد حوار يتدفق بالحكمة والوعي،والإيمان بالقوى الغيبية التي شعر ملك "الصين" أنها تساند "الأسكندر" مخبرا له بإيمانه بها! وحين ذاك يرى "الأسكندر" جيشاً هائلاً من الصينيين؛ فيقول للملك: "**غدرت ؟**

قال: لا والله...

قال: فما هذا الجيش؟

قال: إنى أردت أن أريك أنني لم أطعك من قلة ولا من ضعف، وأنت ترى هذا الجيش وما غاب عنك منه أكثر، ولكنى رأيت العالم الأكبر مقبلاً عليك، ممكناً لك ممن هو أقوى منك، وأكثر عدداً، ومن حارب العالم الأكبر غُلِب، فأردت طاعته بطاعتك، والذلة لأمره بالذلة لك.

فقال الأسكندر: ليس مثلك من يؤخذ منه شيء، فما رأيت بيني وبينك أحدا يستحق التفضيل والوصف بالعقل غيرك، وقد أعفيتك من جميع ما أردته منك، وأنا منصرف عنك"[١].

إن المدونة تستحضر القصة مع قدمها، لتؤكد بعدين مهمين هنا من أبعاد العدل الصيني الراغب في السلام، وهما بعد "الحكمة والقوة" وهي تشير في أثناء ذلك كله إلى الجانب الإيماني الذي ورد،مؤكدا إيمان الملك بالقدرة الآلهية الغيبية، حيث الإيمان بالعالم الأكبر المهيمن المسيطر الناصر.

---

(١) الفرج بعد الشدة، ٣٤٢/٢ – ٣٤٣

وكأن السرد القصصي هنا يستنهض النسق الديني الكامن في نفس المتلقى بالإحالة إلى أن "الآخر" البعيد المتمثل في "الصين" يحمل القيمة العليا التى يؤمن بها المتلقي إيمانا عميقا وهي الإيمان بالله،وربما أراد السياق هنا أن يوضح هذا الجانب الذي ربما كان خافيا عن "الذات" العربية وهو ما يدعو للتفكير في أن يكون إيمان الملك الصيني بالقوة الآلهية مبنيا على إيمانه بنبي لم يذكر في "القرآن الكريم"؛استنادا إلى قوله تعالى :" ورسلا قد قصصناهم عليك ورسلا لم نقصصهم عليك " النساء، الآية:، ١٦٤.

والموقف بعد ذلك يحيل إلى استنهاض النسق العقلي الذي تميز به موقف ملك "الصين" حيث الرغبة في تجنب الحرب ودمارها، والإيمان بأهمية السلام وقيمه العليا ،وهي صفات تثبت التكامل السياسي للحاكم القوي الواعي. ولذا تؤكد المدونة العربية القديمة على هذا التوجه الجميل نحو السلام،وحب العدل لدى ملوك "الصين"،إذ ينقل "النويري" ٧٣٣هـ عن المسعودي قوله في وصف ملوك الصين: "**وملوك الصين ذوو أراء ونحل، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل، وسنن الحق في نصب القضاة والأحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك**"[١].

إن النص السابق يشير إشارة واضحة إلى قيمتي العقل والحق، وأن اختلاف المنطلقات الدينية واختلاف ملوك "الصين"فيها، لا يؤثر على هذه المسالك السياسية الصينية العادلة، التي تتباين منطلقاتها الفكرية،وتوجهاتها الدينية،لكنها تتفق جميعا على الإيمان بهاتين القيمتين المهمتين في الحياة، حيث العقل يشرع ويقيس الأمور ويضعها في نصابها الصحيح، ويضبط القرارات السياسية لتكون في مصلحة "الصين" وشعبها،والحق ينفذ ميزان العدل، ويعطي كل ذي حق حقه .

ولربما كان هذا النص وما سبقه في المدونة العربية القديمة هو ما ساعد الرحالة العرب تجاراً وأدباء وعلماء على التوجه إلى "الصين" والاطلاع على ما فيها،ورواية أخبارها؛ بعد أن منحتهم هذه النصوص الاطمئنان والأمان لهذا "الآخر" الصيني الذي يؤمن إيمانا راسخا بقيم العدل والعقل والحق،وهي قيم "خبرية" في المدونة العربية النظرية القديمة،ستجيب عن حضورها الفعلي المدونة الرحلية المنطلقة نحو "الصين" في الصفحات القادمة.

---

(١) نهاية الأدب في معرفة فنون الأدب ٣٢٩/١٤

٢- الرؤية الرحلية التأسيسية:

أ- العدل السياسي:

انطلق الرحالة العرب إلى "الصين" بعد أن استطلعوا بعض معلوماتها من خلال "المدونة العربية" المقروءة والمسموعة،ويظهر من خلال توجههم نحو الارتحال إليها أنهم قد انطلقوا إلى "الصين" محملين بهذه الصورة الإيجابية التي أوحت بها المدونة السابقة، حيث القيم الأساسية التى تحفل بها "الصين" ومن ضمنها قيم العدل الذي تتبناه القيادات الصينية السياسية، وعدم الظلم، وهو ما شجع الرحالة على خوض تجربة السفر، باعتبارها منفذاً للرزق،وتلبية لحاجة الاستكشاف وخوض تجارب جديدة تارة ،والقيام بمهمات سفارية تارة ثالثة.

وتعد روايات المرتحلين :"سليمان التاجر وابن وهب" –والتي كانت نتيجة رحلتيهما حدود عام ٢٣٧هـ –من أوائل الرحلات العربية إلى "الصين" التي دون أخبارها "أبو زيد السيرافي" نقلاً عنهما،حيث يورد في كتابه قصة التاجر الخراساني الذى تظلم للملك الصيني من سوء معاملة خصي الملك، فتحقق الملك في الأمر، ولما بان له صدق الخراساني عزل "الخصي" الظالم، ونقل عمله إلى "المقابر" لعجزه عن تصريف أمور الأحياء؛فيوجهه إلى تصريف أمور الموتى! مع أن هذا "الخصي" كان من أقرب وأجل خدم الملك، ويورد "السيرافي" قول الملك له :"**لقد كان حقك القتل إذا عرضتني لرجل سلك من خراسان وهي على حد مملكتي، وصار إلى بلاد العرب، ومنها إلى ممالك الهند، ثم إلى بلدي طلباً للفضل، فأردتَ أن يعود مجتازاً بهذه الممالك ومن فيها فيقول: إني ظُلِمت ببلاد الصين، وغُصِب مالي، لكني أتجافى عن دمك لقديم خدمتك، وأوليك تدبير الموتى إذ عجزت عن تدبير الأحياء، وأمر به فجعله في مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها**"[١].

(١) رحلة السيرافي، ٧٣.

والنص السابق يكشف عن عدل الملك ووعيه وحرصه، ولكنه يحمل "سيمائياً" دلالة الحكمة والمفارقة التي كان يأنس بها العربي في خطبه، ويميل إلى الاستغراق في تأملها واستحضارها، وهو يستذكر خطب وأقوال : "أكثم بن صيفى، وقيس بن ساعدة" وغيرهم.بيد أن المنطق الصيني البلاغي التصويري هنا يأتي متبوعا بالفعل الواقعي الذي يصدق الحكمة، ويمنحها قيمتها الحقيقية ؛ولذا فالنص هنا وإن كان يجيب على سؤال جوهري حول "الصين" وعدلها،فهو يشفع ذلك بالخطاب الإقناعي الذى تميل إليه النفس العربية، وتراه قيمة في حد ذاته، حين تأتى الصورة النهائية للسرد القصصي مفاجئة ومفارقة حيث انتقال "الخصي" من تصريف أمور الأحياء إلى تصريف أمور الموتى.

إن العدل الصيني يتميز بأنه يأتي نابعا من القيادة السياسية الكبرى ووعيها بأهميته، وهو ما ركزت عليه المدونة الرحلية القديمة حين نقلته؛ تعضيداً للمدونة النظرية التي أوردت بعض أخباره المنقولة أيضا عبر قرون سابقة من الزمان، فهذا "أحمد بن يحيى القرشي الهمذاني" ٧٤٩هـ ينقل عن "الفاضل نظام الدين" الذي يتحدث عن عدل "صاحب الصين القان الكبير" وأنه: "**على السيرة الفاضلة لأهل مملكته، ومن يردون إليها من ألجافهم بجناح العدل والإحسان**"[١]. فالعدل قيمة أساسية للملك الصيني لمن أقام في "الصين" ولمن قدم إليها من ألجافهم أي المجاورين لهم قربوا أو بعدوا .

بل إن الرحالة "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ ليستحضر المواجهة بين "الصين" والعالم الإسلامي، ويعيد ذلك بكل تجرد إلى تصرف إجرامي أهوج من "جلال الدين سنجر بن خوارزم" ملك خوارزم وخراسان وما وراء النهر، فبعد أن بعث له "تنكيز خان" ملك "الصين والخطا" هدايا من الثياب الحريرية وسواها؛ رغبة في السلام وحسن الجوار،فما كان من ملك خوارزم "سنجر" إلا أن يقابل الهدايا القيمة الداعية للسلام بأسوأ رد،حين أمر عامله أن يأخذ أموال وهدايا "جنكيز خان" من الرسل،

(١) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ١٣٠/٣

ويمثل بهم، ويقطع أعضاءهم ويردهم إلى بلادهم، ثم يقول "ابن بطوطة" بعد ذلك في أسلوب حزين آسف: "**لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق، ومحنتهم رأياً قاتلاً، وتدبيراً سيئاً مشئوماً، فلما فعل ذلك تجهز "تنكيز خان" بنفسه في عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الإسلام**"[١]. فالهدايا التي حملت إلى الملك"سنجر"كان حقها في الإسلام وفي قيم المروءة والوفاء أن ترد بخير منها،ولا يغدر بالرسل الأبرياء،ولا يقابل الإحسان بالقتل والتشويه!

إن ذلك يعيدنا إلى قصة "الإسكندر المقدوني" مع ملك "الصين" حيث لغة الحوار والعقل والعدل والوعي، وهو ما يبدو أنها خصال تجذرت في الثقافة الصينية التي تطبق العدل داخليا، وتتعامل به خارجيا ، وهو ما تجلى في إعطائها للمسلمين حقوقهم في إقامة شعائرهم الدينية كما يشاؤون منذ وصلها الإسلام؛ فالسيرافى ٣٣٠هـ ينقل عن التجار الذين ارتحلوا قريباً من عام ٢٣٧هـ قولهم إن في (خانفو) بالصين: "**رجلا مسلماً يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية، يتوخى ملك الصين ذلك، وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين**"[٢].

وهو احترام للمسلمين القادمين إلى "الصين" والمقيمين فيها توارثته السلطة السياسية الصينية آنذاك، وجعلته طابعاً لاستقبال المسلمين والرحالة العرب، والتجار بل إن "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ ليورد هذا الأمر بوضوح وتجرد، حين يشير إلى الأدب والرقي في التعامل السياسي في "الصين" بدءا من الملك إلى الوزير، وهو يروي أنه أول ما دخل بلاد "الصين" رآه الوزير، وهو يسير، فأخذه وتحدث معه، ثم يقول: "**ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه، فأردت الانفصال، فمنعنى وأدخلني على السلطان، فسألني عن سلاطين الإسلام، فأجبته. ونظر إلى الفرجية فاستحسنها، فقال الوزير: جردها، فلم يمكنني خلاف ذلك، فأخذها، وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهزة ونفقة**"[٣].

---

(١) رحلة ابن بطوطة، ٢٢/٣

(٢) رحلة السيرافي، ٢٤

(٣) رحلة ابن بطوطة ١٠٦/٤

إن سؤال ملك "الصين" عن سلاطين الإسلام في النص السابق؛ ليوحي مع كل سياقات الاستقبال وما أورده كل من "السيرافي والقرشي" سيمائياً إلى رغبة الملك الصيني في التعرف، وإقامة العلاقات، وهو كذلك يدل على المعرفة والمتابعة الراغبة في إقامة العلاقات الطيبة بين الصين وبلاد العالم العربي الإسلامي.

إنه سؤال البحث عن إجابات تطمئن "الذات" وتطمئن "الآخر" أيضا. ويكون أخذ الفرجية بمقابل مادي مجزٍ، مع قدرة الملك على الأخذ دون مقابل دليل على هذا العدل، وإعطاء الحقوق والوفاء لكل زائر ، كما سيتضح أكثر في الصفحات القادمة.

ب-العدل الاجتماعي:

ينعكس العدل الذي تتبناه السلطة في حياة الناس واقعاً ملموساً، ذاك أنها تملك الرؤية والقدرة على تطبيقه، ومتى ما اتخذت السلطة السياسية قرارها بإقامة العدل، ومحاربة الفساد ظهر ذلك على حياة شعبها، ونعم به القاطن فيها، والعابر بها.

وإذا كانت الصفحات الماضية قد أثبتت لملوك "الصين" عدلهم، وحرصهم على بسطه في ممالكهم مما عرضته المدونة العربية النظرية والرحلية، فإننا سنتسائل عن الأمثلة الواقعية التي تثبت ذلك، وهو ما توافينا به المدونة الرحلية من خلال ما عرضه الرحالة العرب في مدونتهم الرحلية التراثية.

ينقل "السيرافي" ٣٣٠هـ عن التجار الذين ارتحلوا قريباً من عام ٢٣٧هـ ما نصه عن تعامل الصينيين مع القادمين إليهم حيث الضبط الدقيق، والأمانة في العملية الجمركية، وإعطاء الحقوق من أعلى السلطات ،وذلك بعد دخول القادمين من البحر إلى "الصين" يقول: "**إذا دخل البحريون قبض الصينيون متاعهم، وصيروه في البيوت، وضمنوا الدرك إلى أن يدخل أخر البحريين، ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة، ويسلم الباقي إلى التجار، وما احتاج إليه السلطان أخذه بأغلى الأثمان، وعجله ولم يظلم فيه**"[١].

(١) رحلة السيرافي، ٣٦

إن جمل: "أخذه بأغلى الأثمان، وعجله، ولم يظلم فيه" لتشير -بتكرارها- إلى ما يمكن أن نسميه "الشفرة" هنا، وهي "شفرة" خاصة ب"السيرافي" والتجار الذين حرصوا على هذه نقل "الشفرة" من خلال إضافة معلومة مهمة جدا،ومن خلال تأكيدات أسلوبية متنوعة ومتتابعة، وهي لا تفيد معنى التأكيد للشاك، أو المنكر كما هو في مباحث "الخبر و الإنشاء" "في البلاغة العربية بل إنه تكرار يحمل معنى الشفرة الواردة عند "رومان ياكبسون" فهي الشفرة التى تضيف وتزيد على ما سبقها من مدونات في المدونة الدينية التفسيرية والأدبية كما سبق.

إن الصدمة الإيجابية التي يوقعها فعلا المضي:" أحتاج- أخذه" الذى يكون فاعله "السلطان" بكل قدرته وسلطته ستعنى أن الأخذ لن يكون بمقابل، لكن المدونة "السيرافية" هنا تحرص وهي ترسل هذه الصورة للمتلقى عبر مرسلها الحقيقى "سليمان التاجر ووهب بن منبه" على أن تصطدم المتلقى صدمة إيجابية، ومفارقة حين تعقب أيضا على أخذ "السلطان" بأنه "بأغلى الأثمان" ثم يأتي الفعلان "عجّله- ولم يظلمٍ فيه" ليؤكدا جمالية: "الاحتياج والأخذ" وجمالية: "التعجيل وعدم الظلم" وهي -سيميائياً- تدل على هذه الجمالية، آخذين بعين الحسبان قدرة "السلطان" الصيني بحكم مكانه ومكانته وقوته على أخذ ما يحتاجه بدون ثمنه،بالمنع أو التأخير في إعطاء الحق .

وتعطى المدونة الرحلية المعنية بالمشاهدة والرؤية المباشرة تأكيداً على ما سبق وقدمته المدونة العربية الدينية التفسيرية التي عرضت لجوانب دينية تشير إلى إيمان بعض ملوك "الصين" بالعالم الأكبر، أو القوة الإلهية التي تقف مع "الأسكندر" كما في بعض قصص الثرات، مما هو مستوحى من حقيقة ورود هذه القصة في سورة "الكهف"باعتبار شخصية ذي القرنين شخصية حقيقية،إلا أنها تخضع لبعض تأويلات المدونة التفسيرية؛وذلك لتحديد اسمها،وزمنها ومنجزاتها. وهي اجتهادات قد تصيب وقد تخطئ ،مع أن "القرآن الكريم" حين يعرض هذه القصص يجردها من تفاصيلها غير المهمة؛ لتخلص لما يريد إيصاله للقارئ والمتأمل للقصة في " القرآن الكريم" يجد أن من أهدافها التي يمكن أن يصل إليها القارئ تأمل وتملي المتلقي لهذه السلطة البشرية"ذو القرنين" المدعومة بالتمكين من الله تعالى، وهي الشخصية التي ترد في القرآن الكريم عاملة منجزة،معترفة بفضل الله عليها في إمداداها؛ بالقوة لإقامة الحق والخير والجمال.

وهو العدل الذي لا تراه المدونة الرحلية العربية القديمة فقط في تعامل ملوك وسلاطين "الصين"بل تراه أيضا تعاملا حاضرا مع الصيني الذي يؤمن بآليات حفظ حقوق الناس،وردها،ينقل "السيرافي" ٣٣٠هـ عن آليات ضبط الديون في معاملاتهم: "**وأهل الصين ينصفون في المعاملات والديون، فإذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتاباً، وكتب الذى عليه الدين كتاباً، وعلمه بعلامة بين أصبعيه الوسطى والسبابة، ثم جمع الكتابان فطويا جميعاً، ثم كتب على فصلهما، ثم خرما فأعطي الذى عليه الدين كتابه بإقراره، فمتى جحد أحدهما غريمه قيل له: احضر كتابك، فإن زعم الذي عليه الدين أنه لا شيء له، ودفع كتابه بخطه وعلامته، وذهب كتاب صاحب الحق، قيل للجاحد الذى عليه الحق: احضر كتاباً بأن هذا الحق ليس عليك، فمتى ما بيَّن عليك صاحبُ الحق الذي جحدته؛ فعليك عشرون خشبة على الظهر، وعشرون ألف فكوج فلوساً، والفكوج ألف فلس، يكون ذلك قريباً من ألفي دينار، والعشرون خشبة فيها موته، فليس يكاد أحد ببلاد الصين يعطي هذا من نفسه، مخافة تلف النفس والمال، ولم نر أحداً أجاب إلى ذلك، وهم يتناصفون بينهم، وليس يذهب لأحد حق**"[١].

إن النظام الصيني قد ولَّد من خلال إجراءاته وتطبيقاته في الأحوال التجارية مبدأ مهماً في تسجيل الدين، وهو الأمر الذى يتوافق مع التوجيه "القرآني الكريم" الذى أكد على ضرورة كتابة الدين، وهو ما نزلت فيه الآية :"الثانية والثمانين بعد المئتين من سورة البقرة ٢٨٢" المسماة آية "الدين" وهذا يعني أن "الآخر" الصيني ينطلق من ذات المنطلق الذى تنطلق منه "الذات" في التعامل مع هذه القضية، بشكل يوحى أن نقل المدونة الرحلية هنا لهذه النصوص تأكيد على ملامح التشابه والتقارب، وإمكانية الاستفادة من الآليات والتجارب بين بلاد العرب والمسلمين وبلاد "الصين".

---

(١) رحلة السيرافي، ٤٤.

وينقل "السيرافي" عن الصينين تجربة قريبة من تجربة كتابة الدين،وقريبة من التوجيهات الدينية الإسلامية في معالجة استدانة بعض الناس الأموال، ثم الزعم بأنهم أفلسوا صدقا أو كذبا! حيث ينقل "السيرافي" عنهم أن الرجل الذي يفلس بعد أخذ مال الناس يضرب خشبات على استه ويقال له: "**ليس لك عمل إلا أخذ حقوق الناس والذهاب بها، إلا أن صح عند السلطان أنه لا شيء له دعي الغرماء؛ فأعطوا من بيت مال البغبغون وهو الملك الأعظم، وإنما سمي البغبغون ومعناه ابن السماء**"[١].

والإشارة إلى جملة "إلا أن صح عند السلطان" تشير صراحة إلى قرب تعامل الصينيين مع المعسر، من تعامل الفقه الإسلامي مع المعسر الذى يثبت إعساره، وهو ما يعني أن أوجها من التقارب الفكري والسلوكي بين "الذات" العربية الإسلامية و"الآخر" الصيني يضعها الرحالة أمام المتلقي؛ ليعلم أن البعد المكاني الذي يشعر به مع ذكر "الصين" لا يعدو أن يكون بعدا مكانيا فقط، ولا يعني بعداً فكرياً أو اغتراباً ثقافياً حيث هنا المتشابهات واضحة، والمعالم الأساسية متقاربة في هذه المسالك .

(١) رحلة السيرافي، ٤٤.

٣-الرؤية الرحلية السعودية:

تواصل النصوص الرحلية للرحالة السعوديين الذين انطلقوا إلى "الصين" ما بدأته المدونة العربية التراثية القديمة من إشارات لقيم العدل الصيني مع الجميع، وتقبلهم للمسلمين،والتعايش معهم، وهم يستحضرون جانباً تواصليا قدمته "الصين" مع زوارها،وسجلته مدونات العرب القديمة "نظرية ورحلية" التي بدأت نظريا مع مدونة: "تفسير مقاتل بن سليمان" ١٥٠هـ ،ورحليا من مدونة : "رحلة السيرافي" التي نقل فيها بعض ما سمعه من "سليمان التاجر ووهب بن منبه" في رحلتهما التي كانت حدود عام ٢٣٧هـ ومازالت الرحلة منطلقة إلى العصر الحديث حيث الرحالة السعوديون؛ باعتبارهم امتداداً طبيعياً للثقافة العربية الإسلامية.

يشير الرحالة السعوديون بدءا إلى ما وفرته الأنظمة المدنية الصينية للمسلمين من تقبل للمسلمين الصينيين ،وحرص على حقوقهم باعتبارهم جزءا من النسيج الصيني الكبير،الذي حظي بدعم في بناء المساجد لهم، وإعطائهم الحرية في ممارسة عباداتهم الإسلامية.

يشير الرحالة السعودى "محمد العبودي" ١٤٤٣هـ إلى قرار الحكومة الصينية الحديثة التى سمحت للمسلمين بارتياد المساجد، وحرية المعتقد، وإعمار المساجد، ويقول: "**والأعمق أنها أسهمت بنصيب في إعمار المساجد التاريخية القديمة على اعتبار أنها جزء هام من تاريخ الصين الثقافي تجب العناية به**"[١].

ويؤكد "محمد عبده يماني" ١٤٣١هـ ذلك، ويشير إلى احترام "الصين" في دستورها للعادات والتقاليد الإسلامية، ويقول: "**وتحظى عادات المسلمين في المعيشة والأعياد والزواج والتأمين وغيرها باحترام الدولة بموجب الدستور**" ثم يقول بعد ذلك: "**ويؤكد الدستور الصيني في جميع مراحله على الحرية الدينية للمواطن الصيني**" وينقل عن المادة السادسة والثلاثين من دستور "الصين"، ما نصه: "**إن جميع مواطنى جمهورية الصين الشعبية يتمتعون بحرية الاعتقاد الدينى، ولا يحق لأية**

(١) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ٢٥٩/١

هيئة حكومية أو مؤسسة شعبية، أو لأى فرد أن يضغط على المواطنين في سبيل الاعتقاد بدين، أو الإنكار لأى دين، والحكومة تحمي النشاطات الدينية العادية، ولا يجوز لأى أحد أن يستخدم الدين في نشاطات تؤدى إلى إزعاج النظام العام، أو الإضرار بصحة المواطنين أو التدخل في النشاط التعليمي الحكومي، والهيئات الدينية لا تخضع مطلقاً لأية سيطرة أو تدخل أجنبى"[١].

إن الإشارة هنا لتؤكد تقبلاً حضارياً وإنسانياً كبيراً للمختلف لدى "الصين" التي تحمى حرية اختيار الدين، ولكنها وذاك من حقها ترفض أن يكون ذلك على حساب الأمن والسلم المدنى فيها.

إن من حق الأمة التي تحدث عنها "مقاتل بن سليمان" في تفسيره قبل خمسة عشر قرناً حين رأي أن الأمة المهتدية من قوم "موسى" عليه السلام هم خلف "الصين" ذلك الوقت، وهم داخلها الآن،إذ أن "الصين" تضمن للمقيمين على أرضها، ولشعبها من المسلمين وغيرهم ممارسة دينهم وشعائرهم، وبالتالي يمكن أن تتحقق رؤية المفسر الطبري الذي تحدث عن هذه الأمة ثم قال: "**فهم هنالك حنفاء مسلمون، يستقبلون قبلتنا**" كما سبق في بداية هذا البحث.

إن العدل الصيني حاضر في المدونة العربية الممتدة، وهو عدل يتبناه الدستور، ويراه الرحالة عبر رحلاتهم التاريخية واقعاً متحققاً، وهو ما انعكس على الأنظمة التي تقوم على احترام الإنسان وحقوقه في كثير من الجوانب، وبخاصة الجوانب المعنية بحماية الضعفاء والمساكين، يقول "علي حسن فدعق" ١٤١٧هـ: "**كما أن القاضي الصيني يحكم على السيدة التى تعذب خادمتها أو خادمها، وتسومه العذاب بأن يجلدها علنا وفي ساحة المحكمة، وهذا من الإنسانية بمكان كبير، حيث لا يجوز تعذيب الخدم لمجرد أن الظروف أوجدتهم في حالة فقر مقدع**"[٢].

---

(١) قادم من الصين والإسلام بخير ٥٢ – ٥٣

(٢) أيام في الشرق الأقصى، ٧٩

إن احترام حقوق الإنسان في "الصين" علامة دالة تحدث عنها الرحالة السعوديون مكملين ما بدأته المدونة العربية قبل ذلك، وهم في أثناء ذلك يلحظون الأمانة والصدق في تعامل الصينيين حتى خارج الصين، يقول "علي حسن فدعق" عن "الصينيين" وهو في جزيرة "سنغافورة" التي زارها حين كانت مستعمرة بريطانية عام ١٩٦١م: "**وكنت ألاحظ الطابع الصيني غالباً على حياة البلد، الحوانيت كلها صينية تقريباً، والذين أراهم أغلبهم صينيون، ذلك أن الصينيين يكونون ٧٣% من مجموع سكان سنغافورة وهم الذين يسيطرون على التجارة تقريباً، وهم كما قلت أهل للثقة والمعاملة الشريفة**"(١).

وهذا العدل هو الذي جعل الرحالة السعودي "محمد العبودي" ١٤٤٣هـ يلحظ ملحوظة مهمة في "الصين" وهو الذي جال فيها أكثر من مرة، وهي ملاحظة عدم وجود الشحاذين أو من يطلق عليهم "السؤّال" في كتب التراث، ويقول: "**بل لا أكاد في الصين كلها التي مررنا بها أذكر أنني رأيت سائلا أو "شحاذاً" واحداً**"(٢).

وهي إشارة إلى أن حرية العمل،والعدل في إعطاء العمال حقوقهم ،والأخذ على يد الظالم ستضمن قلة أو خلو "الصين" منهم كما سجل ذلك "العبودي" .

لقد استحضرت المدونة التأسيسية العربية "الصين" من خلال علامة مهمة هي العدل وهي العلامة التي تدل سيميائياً على أن "العدل" قيمة إنسانية كبرى تتجه نحو الشرق والصين، حيث تصبح "الصين" علامة دالة على هذا العدل، الذي يكون موئلاً للفئات الباحثة عن الحرية في ممارسة حياة كريمة، تحترم حقوق الاختلاف في العبادة وغيرها، ولذا تتجه إليها "الأمة" من قوم موسى في المدونة التأسيسية الدينية العربية كما سبق، أو إلى ما جاورها كما ورد عند "مقاتل بن سليمان"أو تكون "الصين"هي الأرض الجديدة التي انطلق إليها التائبون من العصيان كما فعل "سبط" بني إسرائيل كما في "تفسير ابن الجوزي " وتكون إحالة الواعظ للخليفة "المنصور" في "عيون الأخبار" لابن قتيبة إلى قصة ملك "الصين" الذى فقد سمعه، لكنه لم يفقد الإحساس بالمظلومين والمنكوبين.

---

(١) أيام في الشرق الأقصى، ٧٤

(٢) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ١٥٤/٢

إن السيميائية هنا لتشير إلى أن المدونة العربية القديمة تتجه بوصلتها نحو "الصين" وهي المدونة التي تعد مركزاً مهما للمدونات اللاحقة؛لقدمها،ولأنها تضم المدونة الدينية التي تحفظ مرجعيات عقدية دينية وفقهية،وهي كتب التفسير.

وإذا كنا سنأخذ "بالنسق المضمر والنسق الظاهر" كما هو في كتاب :"النقد الثقافي" عند عبد الله الغذامي؛ فيمكن أن نقول إن "النسق الظاهر" في النصوص التي تتحدث عن العدل هو التذكير والنصح للمستوى الجمعي وللنخبة السياسية، لكن هناك "نسقاً مضمراً" لا ينفى النسق الظاهر بالضرورة لكنه يلمح إليه، حيث سؤال "العدل" عند المجمعات الإسلامية قديما، وجدارتها بأن تكون ممثلة لهذا العدل. إذا كانت الفئة "الخيرة" من قوم موسى عليه السلام ما زالت تقوم بهذا العدل وهم وراء "الصين" وما أحرى الخليفة "المنصور" بالعدل وهو سليم معافى، إذا كان ملك "الصين" يبكي عند فقد سمعه؛ خوفا من ألا يسمع المظلوم؛ فيأمر كل مظلوم أن يلبس حلة حمراء ليراه ! وغير خاف أن الأمة المسلمة التي لا تقيم العدل وهى في وطنها، والخليفة المسلم الذي لا يقيم العدل وهو في بلاده لجديرون بأن يروا هذه النماذج المشرفة.

ويبدو أن اختيار ما خلف "الصين" كان يدل "سيميائيا" على أن "الصين" هي البلد الحامية للعدل، كيف لا وهي في "الذاكرة العربية" النموذجَ القوي الأمين في حفظ العدل، وحماية ومناصرة الأمة العادلة من قوم موسى عليه السلام،وحماية ومناصرة "السبط" من بني إسرائيل، وطالبي العدل من القارين "بالصين" أو المارين بها .

ومن هنا يمكن أن نقرأ قصة "الإسكندر" مع ملك "الصين"، وهي قصة تدل على أن العدل ينتصر إذا لم يعتدِ صاحبه، وأن مهمة "الإسكندر" تنقضى بقدر الله حينما يصل الإسكندر إلى أرض العدل، وهي أرض "الصين" وحيث ملكها الذي حاور "الإسكندر" وأقنعه بصدق حديثه، وسلامة يقينه، واعتقاده أن القوة الإلهية لا تقهر. وهي الصورة ذاتها التي تبرزها المدونة العربية التراثية لقصة :"قتيبة بن مسلم" حينما وصل "الصين" ولكنه يتوقف، وتنتهي المهمة الفاتحة على حدود "الصين" بعد أن اقتنع رسله الذين حاوروا ملك "الصين" بمنطقه العقلاني في الرغبة في عدم مواجهة جيشه العظيم لجيش المسلمين .

وهي "بنية" العدل التي تتحول بنيوياً من "الشمول" و"الانضباط الذاتي" الإيجابي، إلى التحول نحو تفاصيل متعددة، وزوايا متنوعة ترصدها المدونة، ثناء وتقديراً ضمنياً لهذه الدولة.

إن العجيب أن كل المحاولات الهادفة إلى غزو "الصين" تنتهي سلما بدءا من الإسكندر ومرورا بجيش "شمر بن يرعش"،وصولا إلى "قتيبة بن مسلم"! والجميل والغريب أن "الصين" تحضر مدافعة، ولا تظهر معتدية إلا في موقف واحد، أشارت المدونة العربية الرحلية التراثية إلى أسبابه الموضوعية بكل تجرد، وهو موقف ملك خراسان "جلال الدين سنجر" مع "جنكيزخان" وهي أسباب تجعل الإنسان يستذكر أن تصرفاً ظالما واحداً من قيادة ،أو ملك ربما تسبب في مآسي كثيرة، ونتائج كارثية، فحين أمر "سنجر" أميره أن يأخذ هدايا ملك "الصين" وأن يقطع رسله الذين جاؤا بالهدايا، ويمثل بهم!! ثم تكون عبارات: "ابن بطوطة" تشير إلى أن ذلك كان قدراً مقدراً؛ لإذاقة العالم الإسلامي أبشع أنواع الاعتداء والقتل، دون أن تسهب في الأسباب، وكأن النسق السياسي، والدور الدبلوماسي يمنعان السفير "ابن بطوطة" من أن يتحدث بكل صراحة عن أن عاقبة الظلم شنيعة، ومآله مؤلم.

إن البنية المركزية نحو "الصين" في المدونة العربية التأسيسية والرحلية ترتكزان على الرؤية الإيجابية في معناها الفاعل "المثبت" وفي معناها "النافي" أيضاً، فهى بنية "ذاتية الانضباط" حيث حركتها في اتجاه واحد نحو "الإشادة" بالنموذج الصيني الذي يثبت، وينفي، والنفي هنا يتجاوز معنى النفي الحقيقي المضاد للإثبات ،إلى نفي الفعل أو الشخص بالعقاب والإبعاد الذي يعيد لقيمة "العدل" مكانها ومكانتها، "فالسيرافي" ينقل– كما مر– في مدونته عزل الملك الصيني لواليه؛ لأنه لم يحسن تصريف أمور الأحياء؛ فجعله في المقابر؛ لتصريف أمور الأموات! إذ تجاوز "العدل" والظلم يشير لنسق مضمر وهو "موت" للحياة الكريمة، و"الزاني" ينفي بزناه إلى القتل، حيث القتل هو جزاء التعدي على أهم مقوم من مقومات حياة المرأة وقتل

له، كما هي القصة التي وردت في تفسير "الزمخشري"، وإيقاع الجلد على المرأة التي تظلم خادمتها هو جزاء التعدي على حقوق المستضعفين، وأنت واجد هنا أن العقوبات انتصرت في كثير منها للأبرياء والضعفاء حيث الحكم:

بالقتل ◄◄ انتصاراً للمرأة المغتصبة في أعز ما تملك...

وبالجلد ◄◄ انتصاراً للمرأة العاملة المستأجرة للخدمة...

وبالعزل ◄◄ انتصاراً لعابر سبيل "التاجر الخراساني"...

وهي أحكام تنوعت قصصها كما تنوعت المدونات التي توردها بين القديم والحديث، بين المدونة الدينية "للزمخشرى" والمدونة الرحلية القديمة(السيرافي) والمدونة الرحلية السعودية (فدعق).

وهو تقارب بنيوي تكويني يحمل في طياته تغيرات السياق وتنوعاته، ولا شك. بيد أنه يبقى سياقاً إيجابياً واحداً يضبط الرؤية "البنيوية التكونية" التي شكلت العقل العربى، واستحثته على الكتابة، ومنحته حرية كبيرة في السرد، والاستشهاد. وهو ما نلحظه من تحولات البنية وفق مبدأ شمولي واحد يقوم على التنوع، لكنه تنوع ضمن مسار "انضباط ذاتي إيجابي"، و"متحول" في زوايا الرؤية وفق سياقاته ومشاهده وحوادثه، "فالسيرافي" يروى عن أولى الرحلات التي ذهبت إلى "الصين" عبر "سليمان التاجر وابن وهب"، حيث يلتزم الصيني مسئولاً أو تاجراً أو مسلماً بأن يحفظ كل ما يتركه التاجر المسلم الذى ينزل "الصين"، ويخير أين يضع ماله، وهو تطبيق عملي على هذا الضمان العادل، والتعاون البناء، ثم تتكرر الصورة بعد قرون حين يؤكدها "النويري" واصفاً أهل "الصين" بأنهم وملوكهم غير خارجين عن العدل،وانقيادهم للحق سواء أكان صاحب الحق من الصينيين أو ممن مر بهم كما عند "القرشي الهمذاني" ثم تتجدد البنية عند "فدعق" بعد قرون أيضا،وهو يجدد البنية، ويؤكدها من خلال سياقه الخاص، حين يقول عن الصينيين إنهم : "أهل للثقة والمعاملة الشريفة".

ويمكن أن نقول إن نص "السيرافي" الخاص بكتابة الصينيين للدين، وتقييدهم له تعد علامة "سيميائية" على رغبة المدونة العربية في فتح قنوات من التواصل مع "الآخر" الصيني عبر آلية مهمة من آليات "الذات" في التعامل مع قضية "الدين" حيث الكتابة، والأمر بها على سبيل الندب، وكأن هنا نسقاً موضوعيا معجباً بهذا "الآخر" الصيني، وهي إشارات نسقية مضمرة يمكن استنتاجها من خلال هذه النصوص الإيجابية .

إن العدل في الأخذ والمنع، مع القاطن والعابر، مع الغني والفقير يغدو سمة من سمات الصين الرائعة؛ "فالملك" يأخذ من "ابن بطوطة "الفرجية" ويعطيه ويجزل له العطاء، فليس في قاموس "الملك" أخذ بالقوة والمكانة والقهر.والحكومة الصينية عند "العبودي" بعد قرون عديدة هي التي تسهم في بناء المساجد؛ تأكيداً على حق المواطن الصيني المسلم في إقامة شعائره الدينية إذ الصيني وغيره من زوار "الصين" يأخذون حقوقهم دون نقص أو جور، وقد أبان "السيرافي" ذلك في مدونته حين أشار إلى أن من يفلس بعد أخذه أموال الناس يجلد، ويعيدها لهم إن كان متلاعبا، فإن ثبت "للسلطان" أن لا شيء لديه فإن السلطان يتحمل عنه، ويعيد للدائنين أموالهم، وهو ما يشير إلى حزم دون قهر، ورحمة دون تفريط في الحالة الصينية الماثلة.

ولم تكن المدونة النثرية القديمة هي التي عرضت "للصين" العادلة فقط، بل إن المدونة الشعرية القديمة قد عرضت لذلك عبر واحد من أقدم نماذجها، وأشهر حكمائها الذى كان يضرب به المثل في الخطابة والفصاحة والذكاء، وكأن حضوره في هذا الجانب تأكيد على أن السياق الفكري والخطابي والاجتماعي كان مرحبا "بالصين"منذ أقدم العصور العربية التي تسجل وببراعة كل هذا الإعجاب، إذ تنقل المصادر عن "قس بن ساعدة"٢٣ ق ه بعض خطبة، وبعض المقطوعات الشعرية التى قالها في الاعتبار والتأمل والموعظة، تحضر "الصين" عبر ملكها المتوج الراحل الذى أصابه الموت كما أصاب العظماء من قبله ملوكاً وقادة، وأصحاب نفوذ

واسع، عرضت لهم المقطوعة وأبانت أن الموت كان مصيرهم مع ما حققوه من ملك وجاه،فليعرف كل إنسان حقيقتها،وأنها مهما أعطت الإنسان ستأخذ منه،ولو كانت باقية لأحد لبقيت لهؤلاء العظماء من الملوك والقادة الذين حققوا منجزات سجلها التاريخ،ولكن الموت كان نهايتهم، يقول:

من بعد ملك الصين أصبح هالكاً ... أكرم به من هالك محتاح[١].

إن مما يؤكد حضور "الصين" البهي في المدونة العربية التراثية أن "قس بن ساعدة" قد عرض ملوكاً وزعماء تعرضوا للفناء والموت في مقطوعته الوعظية، ولكن الوحيد الذي أثنى عليه هو ملك "الصين"فهو الهالك الذي رحل محتحتا ليس معه شيء ، وهي إشارة إلى أن الصورة لحضور الصين وحضارتها وضخامة ملك ملوكها كانت حاضرة في الذهنية العربية المعجبة بها منذ أقدم العصور.

وليس من شك في أن هذه المقطوعة سواء صحت نسبتها "لقس بن ساعدة" أم لا، إلا أن مجرد وجودها في مدونة تاريخية عربية قديمة، وتقبل "الذات" الجمعية لها، وحفظها، وتدوينها يدل على علاقة إيجابية تقدر "للصين" مكانها ومكانتها السياسية عبر الثناء على ملكها الراحل من زعيم من زعماء البيان والحكمة والخطابة العربية.

وهو ما يمكن أن يساق مساق الإعجاب بعدل "ملوك الصين" مع رعاياهم، وعدل الصينيين بشكل عام في التعامل مع "الذات" العربية منذ القدم،عبر هذه الروايات العربية الضاربة في القدم التي تشيد بهذا العدل وصولا إلى المدونة الرحلية السعودية الحديثة.

ولا شك أننا سنضع ذلك ضمن بنية العقل العربي الذي أشار وأشاد بهذا العدل، وهي بنية تثبت "ذاتية الانضباط البنيوي" ضمن الاتجاه "الشمولي" نحو الإشادة، "وتحولات" هذه الإشادة بالإضافة المستمرة على كل نص جديد بما يناسب سياقه، من خلال تنوع مواقف "الذات" مع "الآخر" الصيني، حيث تتوالى السياقات، وتتعدد المواقف والمشاهد،وتتنوع المدونات اللاحقة والسابقة .

---

(١) التيجان في ملوك حمير، ١٢٨/١

الصين الجاذبة

١- الرؤية التأسيسية :

تتسابق الدول؛ لترسم لها موقعا جاذبا يمكنها من تحقيق أهدافها السياسية والاقتصادية المتنوعة، وتحاول الدول أن تكون مدنها موفرة ليس للحياة العادية فحسب، بل لجودة الحياة، سعياً إلى صناعة مقومات دخل يمكن تحقيقها من خلال هذه القوة الناعمة التي أضحت طريقاً فاعلاً في تحقيق أهداف اقتصادية؛ يقوم عليها نماء الحياة وازدهارها.وتتوافر أحياناً للدول مقومات أمنية وسياحية وتسويقية فتحقق قفزات كبيرة في الحضور والتميز.

والتجربة الصينية الفاعلة اليوم لها تاريخها الكبير في الحضور والنجاح،وهو تاريخ يمتد إلى اليوم حيث أضحى واقعها رياديا على المستوى العالمي، بعد أن حققت فيه قفزات كبيرة أضحت حديث العالم من خلال سرعتها في النمو، وتحقيقها معدلات كبيرة في الإنتاج، مع توفر اليد العاملة، والانطلاق نحو التقنية مع أسس كل ذلك وهو "الأمن" الذي توفره الدولة لمواطنيها ،وزائرها.

والمتأمل لما رصدته المدونة العربية القديمة والرحلية السعودية الحديثة سيلحظ أن "الصين" تسجل ذلك من القدم، بحيث أصبحت جاذبة لسكانها أولاً، ثم للآخرين، وهو الجذب الذي منح المواطن الصيني ولاء أصيلا لبلده،واعتزازا بها،وحبا لترابها، حتى ليمكن أن نعد ولاء الصينيين وحبهم لبلدهم والتضحية من أجله، علامة فارقة من علامات هذا البلد عبر تاريخه وحاضره . وغير خاف أن هذا الولاء إشارة أولى إلى مقومات ومكتسبات تحققها "الصين" لمواطنيها،وتجذب من خلاله الزوار والتجار، ورؤوس الأموال.

وقد سجلت المدونة العربية ذلك من خلال ما تقدم في هذا البحث وعي ملوك "الصين" ومواطنيها بأهمية العمل والانتاج والجودة فيه، وهو مؤشر أولي على هذا الولاء الذي يتحقق بالعمل لا بالكلام، كما أن اتجاه ملوك "الصين" للحفاظ على أمن سكانها والمقيمين فيها،وتغليب جانب العقل في تجنب المواجهات والحروب مع وجود القوة الهائلة؛ ليعد إشارة على وعي أصيل لدى القيادات الصينية المتعاقبة من أجل جعل "الصين" واحة آمنة جاذبة للجميع ، حيث كان القادم نحو "الصين" لغزوها يتوقف أمام منطق العقل الصيني، الذي تقف خلفه قوه هائلة من الصينين الذين يضحون بكل شيء من أجل وطنهم،ولكنه كان يؤثر السلام ويدعو للوئام. وقد مرت في مبحث "الصين الآمنة" قصتا "ملك الصين" مع "الإسكندر المقدوني" وقصة "الملك الصيني الآخر" مع "قتيبة بن مسلم الباهلي"، وهما قصتان تنتهيان إلى انتصار العقل الصيني المقنع، والمتدثر بالقوة اللازمة إن احتاج الأمر للمواجهة ، وهما أيضا علامتان أيضا على الرغبة في الاستيلاء على "الصين"؛ لمقوماتها المتنوعة،وكنوزها المتعددة، فهي الصين الجاذبة للتاجر والسائح والغازي أيضا.

إن المدونة العربية التراثية لتورد النصوص المتعددة على هذا الحب والولاء للصينيين في حب بلادهم ،وهو حب ينطلق بالضرورة من الولاء لقياداتهم باعتبار هذه القيادات العظمى هي صمام الأمان لوحدة الكلمة واتحاد الجميع ؛يقول "القلقشندي" ٨٢٠هـ عن ولاء الصينيين لسلاطينهم: "**وأما حالهم في طاعة ملكهم فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لا لمال ولا جاه بل ذلك دأب لهم**"[١].

إنه الحب الحقيقي الذى لا غرض له سوى الولاء للوطن، والالتفاف حول قيادته، وهو ما ينقله القلقشندي نظريا لكن هذا الولاء ضارب في أعماق التاريخ تسجله المواقف لا الكلمات فقط ،وهو ما تظهره المدونة العربية الأقدم عبر سجلها التاريخي، حيث يورد المؤرخ "عبد الملك الحميري" ٢١٣هـ قصة توجه "شمر بن

(١) صبح الأعشى، ٣١٢/٤.

يرعش بن أبرهة" لغزو "الصين" ثم يورد الموقف الفدائي الوطني الذي قام به أحد الصينين بعد أن استشار الملك بعض وزرائه ومستشاريه في أمر هذا الغزو الكبير الذي يجهزه الغازي "للصين" وكيف يمكن مواجهته ،وهنا تتجلى روح الولاء للوطن الجاذب لمواطنيه حين يطلب أحد المقربين الصينيين من الملك ، أن يجدع أنفه،وبعد أن جدع أنفه ذهب هذا الصيني البطل إلى "شمربن يرعش" وزعم أن الملك الصيني جدع أنفه، وأنه يريد مساعدة "شمر"؛ انتقاما من الملك الصيني ويصدقه "شمر" بعد أن رأى صدق كلامه في أنفه المجدوع، ويطلب منه أن يسلك بجيشه طريقا آخر أفضل للتوجه "للصين" ويأخذه الصيني بعد ذلك إلى مملكة لا ماء فيها؛ ليهلك الجيش ظمأ، ويتيقن "شمر" أن الصيني قد خدعه ويأمر بقتله، و ينقل المؤرخ "الحميري" عن لسان هذا البطل الصيني قوله: "**أردت أن تهلكنا، وتهلك ملكنا، وتقتل رجالنا، وتسبى ذرارينا، فوهبت نفسي لأهل بلادي؛ فوقيتهم من الهلاك بنفسي، وأنت ومن معك أحق بالهلاك من ملكنا وأهل بلاده**"(١).

إن إيراد المدونة العربية القديمة هذه القصة عن هذا الموقف تشير سيميائيا إلى أن الصينيين أصحاب حب وولاء وتضحية لوطنهم ، وهي بذلك ترمز للرموز الكبرى في التضحية للوطن من خلال هذا البطل الصيني الذي قدم حياته فداء لوطنه،مما يعني أن هذا الولاء الصيني مركوز في الذاكرة العربية الجمعية. وهي تعي جيداً أن هذه القيمة العليا في حب الوطن، وتلك الفروسية والتضحية مما يقبله العربي، ويتغنى به ويكبره ويحفظه؛ ليكون زاداً للولاء والفروسية والتضحية في أجمل صورها، وهي مشتركات ثقافية محببة من العرب والصينيين من ضمن مشتركات متعددة، وكيف لا!والصينيون كما يقول "النويري" ٧٣٣هـ: "**شعوب وقبائل كشعوب العرب وأفخاذها، ولهم مراعاة لحفظ أنسابهم، وينتسب الرجل منهم إلى خمسين أباً أو أكثر**"(٢)، وهو الانتساب الذي يؤكد عمق صلة الصينيين بأرضهم وحبهم لها،وتعلقهم بها.

---

(١) التيجان في ملوك حمير، ٤٤٥.

(٢) نهاية الأرب في معرفة فنون الأدب، ٣٢٩/١٤.

إن هذه المشتركات مع "الصين" التي يراها العربي الذي انطلق من الجزيرة العربية لتعد أرضية لبناء تقارب جاذب منذ ذلك الزمن؛ لأنها صفات مشتركة، وقيم متنوعة في الفروسية والتضحية والوفاء.

ولعل صفة الكرم من القيم الجميلة التي رآها العربي في "الصين" حاضرة بعد أن كانت من صفات الكمال التي عرفها العربي، وتغنى بها شعرا،ورددها في مدوناته النثرية أيضا ومدح ممثليها، والجميل أنه يجدها ماثلة أمامه حينما زار "الصين"وتعامل مع الصينيين،ولذا يشير إليها ويركز على جمالياتها ومردودها الكبير على نفسه،ونفوس متلقيه ، وهو ما نقلته المدونة الرحلية التراثية،متمثلا في الكرم الصيني الذى ظهر مثالاً واضحاً على العطاء الصيني الفاضل، والخلق المتين.

يقول "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ، متحدثا عن المأدبة التي صنعها له الأمير الصيني الكبير "قُرْطَى" وهو أمير أمراء "الصين" :"**وحضرها كبار المدينة، وأتى بالطباخين المسلمين، فذبحوا وطبخوا الطعام، وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده، ويقطع اللحم بيده**"(١).

إن الكرم الإنساني طبيعة بذل ونبل محببة وجاذبة للإنسان الذي يتمثلها؛لأنه استطاع أن يتخلص من صفات الكبر والحرص،فكيف إذا كانت ماثلة في هذا القائد الصيني الذي يتواضع ويتباسط مع ضيوفه وهو في منزلته القيادية العالية.

وليس الكرم فقط هو علامة الجذب "للصين" والصينيين ،ولكن المدونة العربية تعمد إلى إيجاد مجموعة من المشتركات التي تجذب العقول العربية نحو "الصين" التي تشترك مع العرب في عدد من المشتركات،من خلال بعض المشتركات التي يأتي من ضمنها "الزواج" باعتباره مشتركا إنسانيا، تتفاوت الثقافات الاجتماعية في آليات ممارسة طقوسه وعاداته،وتحرص المدونة العربية على نقل عادات الصينيين في الزواج،وهي طريقة لا تبتعد عن ثقافة "الذات" العربية الإسلامية، إذ

(١) رحلة ابن بطوطة، ١٤٧/٤.

ينقل "السيرافي" ٣٣٠هـ ما رآه من عاداتهم في الزواج من: "**أن أهل الصين إذا أرادوا التزويج تهانئوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان**"(١).

وهي إشارة إلى ثنائية مشتركة مع الزواج العربي الإسلامي، حيث الخطبة ثم المهر، ثم إشهار الزواج على أصوات الطبول، وفي قوله: "على قدر الإمكان" تذكير إلى المسلك الإسلامي القويم الداعي إلى تقليل الصداق،وتسهيل أمور المهر؛ رغبة في تلبية رغبة الشباب والشابات في إقامة الأسر، ومواصلة الحياة في ظلها،وهو ما ورد صريحا في حديث سهيل: "**أن النبي صلى الله عليه وسلم زوَّج امرأة بخاتم من حديد**"(٢)، والمدونة تحرص على نقل هذه العادة الصينية تأكيدا للتقارب،وإعجابا بهذا النهج الصيني الجميل .

والمتأمل لبعض النصوص يجد أنها تتجه بطريقة أو بأخرى نحو مقاربة بعض العادات العربية الأصيلة التي يشترك العرب فيها مع الصينيين،والمتمثلة في عادة استعمال العصا،وهي عادة عربية تعرضت لكثير من الطعن من أصوات عنصرية ضد العرب في بعض الفترات التاريخية، وبخاصة في الاعتماد عليها عند الخطابة، بيد أن "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ يؤكد أنها حاضرة عند الصينيين ويقول:"**ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي، ويقولون هو الرجل الثالثة**"(٣).

والمتأمل لما أورده الجاحظ ٢٥٥هـ في كتاب "العصا" من رد على "الشعوبية" الذين نقموا على العرب استخدامهم العصا في خطبهم، وما أورد في ذلك سيدرك أهمية "العصا" في حياة العرب، والتقاءهم مع الصينيين في هذه العادة الأصيلة(٤).

---

(١) رحلة السيرافي، ٤٨/٨.

(٢) صحيح البخاري، باب فضل من تعلم القران وعلمه، ١٩٢/٦.

(٣) رحلة ابن بطوطة، ١٢٧/٤.

(٤) البيان والتبيين، ٣٧٠/١.

وتورد المدونة الرحلية التأسيسية العربية أحيانا وصفا للملابس الصينية التي لا تبتعد عن اللبس العربي فيما يتعلق بالستر لا بالنوع، حيث يقول "السيرافي" ٢٣٣هـ : "**ولباس الصين الصغار والكبار الحرير في الشتاء والصيف**"،ويشير إلى بعض مأكلهم من الأرز والكوشان، وهو حين يورد هذا الطعام لا يحتاج إلى أن يبين نوعه وطعمه؛ مما يدل على معرفة العرب به، وألفهم له، وإلا كان مضطرا للوصف والإبانة على عادته في وصف الغريب وغير المعروف، يقول: "**وطعامهم الأرز، وربما طبخوا معه الكوشان فصبوه على الأرز فأكلوه**"(١).

وتتحول الكتابة الجاذبة "للصين" إلى تفضيل بعض منتجات "الصين" الزراعية على أفضل الزراعات العربية التي يعرفها "ابن بطوطة"٧٧٩هـ، ويقول عن السكر والإجاص والبطيخ: "**وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهى المصرى، بل يفضله، والأعناب والإجاص وكنت أظن أن الإجاص العثماني الذى بدمشق لا نظير له، حتى رأيت الإجاص الذي بالصين، وبها البطيخ العجيب، يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان، وكل ما ببلادنا من الفواكه فله ما هو مثله وأحسن منه، والقمح بها كثير جدا، ولم أر قمحاً أطيب منه وكذلك العدس والحمص**"(٢).

وأنت واجد أن :"أفعل التفضيل" حاضرة بينة في وصف "ابن بطوطة" مما يدل على أن هناك موضوعية في الوصف،واعترافا بالتميز،وهو تميز تشير إليه المدونة باعتباره وصفا جاذبا "للصين" التي تفضل منتجاتها من الفواكه والسكر كل ما لدى العرب في بلادهم، ولعل جملة :" وكل ما ببلادنا من الفواكه فله ما هو مثله وأحسن منه" تدل على أن "الصين" بلد جاذبة ليس لطبيعة أهلها فقط،بل ولطبيعة أرضها المانحة كل هذه المزروعات الرائعة.وهي دعوة ضمنية تشويقية؛ لزيارتها والاستمتاع بطيب منتجاتها وجودتها ؛فكل مالدى "الذات" العربية من هذه المنتجات، سيكون قطعاً لدى "الآخر" الصيني، ولكنه وللمفارقة الجاذبة "أجود وأفضل وأحسن ولا نظير له، ولم ير أطيب منه" كما يؤكده الرحالة الخبير "ابن بطوطة".

---

(١) رحلة السيرافي، ٣٠.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ١٢٥/٤.

وتنطلق المدونة العربية الرحلية القديمة أحيانا إلى تصوير "المدهش والغريب" عن طريق الوصف الحقيقي للمعهود المألوفة صورته عربيا، الغريبة صينيا، من دون مبالغة أو اتجاه إلى التخييل والمبالغة؛فالمشاهد غريب وجاذب للنظر إليه،ومقارنته بما لدى "الذات" .

يقول "ابن بطوطة" عن الديك الصيني: "**وأول ما رأيت الديك الصينى بمدينة كولم، فظننته نعامة وعجبت منه، فقال لي صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه، فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك**"[١]. وغير خاف أن النص يشير –سيميائيا– إلى أن "الصين" بلد الغرائب والمدهشات، وهي الغرابة المتفق على حضورها في ذلك العصر، حيث يشير صاحب الديك في مدينة "كولم" إلى أن دهشة "ابن بطوطة" من ديكه الصيني، ستتلوها دهشة أعظم حينما يصل "الصين"، ويرى بعض أنواع الديك الأكبر مما رآه، وذاك يعني ضمنيا أن الذهنية العربية وغيرها تتفق على أن في "الصين" من الغرائب والمدهشات ما تدعو لزيارتها والاطلاع عليها.

لقد قدمت المدونة الرحلية القديمة التي كتبها الرحالة العرب بعض المشركات الجميلة بين العرب والصينيين،وعرضت لبعض التنوع الذي رأته في منتوجاتها التي تميزت بها، وتفوقت على ما لدى العرب،ودونت عن بعض غرائبها المدهشة،وكأنها تؤكد على أن في "الصين" من المشتركات والمدهشات الجاذبة؛ ما يدعو فعلا لزيارتها، ورؤية ما فيها من تليد وجديد ومتميز ومختلف . بل إن بعض القصص التي توردها المدونة العربية القديمة لتدل دلالة قاطعة على أن المشترك الوثيق بين العرب "والصين" قد تجلى في بعض القصص الطريفة الجميلة،حيث يصل الأمر إلى علاقات وطيدة من التفاهم الحياتي الذي يحمل جانباً طريفاً، لكنه يشير إلى ارتباط العربي بالصينى على نحو متميز في هذه الفترات التاريخية التي تدونها المدونة

---

(١) المرجع السابق، ١٢٥/٤.

العربية، إذ يورد "البغدادي"١٠٩٣هـ، إحدى قصص الشاعر المتجاوز "الأقيشر الأسدي" الذى كان هجاءً، ولم يسلم أحد من هجائه،حتى أقاربه الذين أحسنوا إليه؛ مما جعلهم ينبذونه؛ كفاء هجائه وإيذائه لهم، وهو ما جعلهم لا يعينونه على مهر ابنة عمه "الرباب" بعد أن خطبها، وكان مهرها "أربعة آلاف" درهم،فتوجه إلى ملك "الصين" طلبا للمهر، وتقول الرواية: "**فأتى دهقان الصين، وكان مجوسياً فأعطاه الصداق كاملاً، فأنشأ يقول:**

كفاني المجوسي مهر الرباب ... فدى للمجوسي خالي وعم

شهدت عليك بطيب الأروم ... فإنك بحر جواد خضم

وأنك سيد أهل الجـــحيم ... إذا ما تــرديت فيمن ظلم

تجاور هــامان في قعرهــا ... وفرعون والمكتنى بالحكم

فقال المجوسي: ويحك! سألت قومك فلم يعطوك شيئاً، وجئتنى فأعطيتك، فجزيتني هذا القول! فقال: أوما ترضى أن جعلتك مع الملوك وفوق أبي جهل"[١].

إن القصة في ظاهرها طريفة تحكى قصة شاعر هجَّاء ،لم يسلم منه أحد، ولكننا يمكن سيميائيا أن نستشف علامات تدل على ارتباط من نوع خاص، يتجاوز العلاقة العادية إلى علاقة فيها الكثير من الروابط، حيث لن يذهب "الأقيشر" للدهقان الصيني، إلا وهناك علاقات سابقة لا تربط الاثنين فقط، بل تشكل مساحة واسعة من العلاقات بين "الذات" وممثلها "الأقيشر" الشاعر، "والآخر" ويمثله "الدهقان" أو الملك الصيني، وهى العلاقة الوثيقة التي جعلت الشاعر يطلب المهر من "الدهقان" بكل ثقة واطمئنان إلى كرمه وجوده، تاركا العرب جميعا،وأن يأمن على نفسه، ويثق في حلم وسماحة "الدهقان" حين يمازحه بهذه الأبيات، وهي العلاقة ذاتها التي جعلت "الدهقان" على دراية واطلاع بالحياة العربية آنذاك، وتفاصيلها حين أشار إلى معرفته أن قوم الشاعر منعوه، وهي علاقة تتحول من خلال المدونة إلى اعتبار "الدهقان" جزءاً من

---

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٤٩١/٤، والمقطوعة في ديوانه، ص١١٧.

الحياة المختلفة المؤتلفة مع الحياة العربية، وهو ما جعل الشاعر يجعله في منزلة القريب الذي يمازحه ضمن من يمازحهم، ومع كل ذلك فإن الملك الصيني لم يتعرضه بالتهديد والقتل، بل رد عليه بالمنطق الذي يؤكد معرفته بالشاعر،وظروفه،وموقف أسرته منه وبالحياة العربية في بعض تفاصيلها الاجتماعية التي تبين توتر علاقة الشاعر مع أقاربه.

وإذا كان ملك "الصين" على هذا النحو من السماحة والكرم، وهو القادر على الفعل والانتقام والمنع؛ فإن ذلك يعني أن السماحة الصينية طبع أصيل يحمله الصينيون ملكا وشعبا، ولذا تصبح الأرض الصينية عند بعض الرحالة مشعة بالسعادة والسرور والاطمئنان ،كما ينقل "ابن خرداذبة"حين يقول عن "التبت والصين": "**إن من دخل التبت لم يزل ضاحكا مسرورا من غير سبب يعرفه حتى يخرج منها، وإن من دخل من المسلمين بلادا في آخر الصين تدعي "الشيلا" بها الذهب الكثير استوطنها لطيبها ولم يخرج عنها ألبتة**"(١).

إن النص السابق لا يمكن أن ينقل على هذا النحو لو لم تكن "الصين" جاذبة للمتلقي العربي؛فقد تحدثت المدونة التراثية عن بواعث وأسباب جاذبيته للمتلقي العربي، من خلال عدل وكرم ملوكها وقرب بعض عاداتهم من عادات العرب ،وطيب طعامها ومزروعاتها التي تفضل ما لدى العرب، والعلاقات التي ربطت بعض شعراء العرب بملوكها، وهي علاقات دالة على أصالتها واطمئنان كل طرف، ومعرفته بطبيعة الآخر؛ ولذا تأتي هذه الجمل لتؤكد أن "الصين" جاذبة من خلال آلية بلاغية استعارية، تتكيء على:"المجاز المرسل" الذي يعرفه العرب، حين يذكر المكان ويراد به ساكنوه،كما في قوله تعالى :"واسأل القرية" سورة يوسف، الآية ٨٢، إذ المقصود: "أهل القرية" ويبدو أن سؤال الارتياح "للصين" لن تكون إجابته الصحيحة المكان فقط، بل إن المقصود به :"أهل الصين" وساكنوها ، فلو لم يكونوا جاذبين بتعاملهم وطيب معشرهم؛ لما كان للمكان مزية تذكر ،وإنما المكان بأهله وساكنيه .

---

(١) المسالك والممالك، ١/١٧٠.

٢- الرؤية الرحلية السعودية:

تجدد الرحلة السعودية -بالنظر إلى سياقها الزمني الحديث – رؤية "الصين" من خلال زوايا جديدة، تتنوع،ولكنها تتفق على نوع من الائتلاف النفسي الذي تصنعه "الصين" لزائرها، وهو امتداد بنيوي للذهنية العربية الناظرة "للصين" التي اتسمت "بالشمول" الإشادي، "والانضباط الذاتي" الذي لا يتأثر إلا بسياقاته الداخلية، و"التحول" الذي يطرأ مع كل سياق موضوعي أو زمني جديد، يضيف للرؤية الرحلية شيئا جديدا،لم تذكره المدونة العربية القديمة،باعتبار "الشفرة" التي تضيف على "السياق" وتختلف عنه بما أضافت . كما هي مبادى البنيوية في جانبها التكويني،وجانبها التواصلي الياكبسوني،وتوظيف البحث لها من خلال رؤيته الخاصة التي رأى أنها تناسب نصوص مدونته هنا.

ولذلك يمكن أن يصل البحث بين عوامل الجذب التى رأتها المدونة القديمة مع مدونة الرحلة السعودية الحديثة، فحين الحديث عن "الولاء" الذي عرضته المدونة التأسيسية في قصة "شمر بن يرعش" ونيته غزو "الصين"، وما قام به أحد الصينيين من تضحية تنم عن ولاء وحب لوطنه، إذ تتجدد هذه الفكرة في المدونة الرحلية السعودية،حيث "الولاء" سمة من السمات الأصيلة في نفس المواطن الصيني تجاه وطنه وأبناء دولته، مما ظهر للمرتحل السعودي ظاهرا منذ النظر الأولى للمباني في "الصين" ونظامها الهندسي المعتز بهويته العمرانية، وهي علامة سيميائية تدل على هذا الحب والولاء والوفاء لتراث "الصين" العريق، والتعلق به إلى العصر الحديث، يقول "يحيى المعلمي" ١٤٢٢هـ: "**وفي الصين امتزج تراث الحضارة الصينية الأصيل العريق بمستحدثات الحضارة الغربية العصرية في فنون العلم وأفانين التقنية، فنرى البناء الضخم يبهرك من الخارج بمظهره الصيني، ومظلاته التقليدية، ودعائمة الفخمة، فإذا دخلت إليه بهرك بزخارفه الحمراء ونقوشه التي يبرز مرأى التنين فيها بروزاً واضحاً، وتلتف عضلاته التفافاً حول ما تزخر به اللوحة من فنون الرسم والتصوير**"(١).

(١) رحلة علمية، ورحلات أخرى، ٢٤٥.

إن الولاء للوطن يتجلى في الحفاظ على التراث الصيني جنباً إلى جنب مع العمارة الحديثة؛ إذ يعطي هذا المشهد الواضح للعيان علامة سيميائية، تتجاوز المنظر الظاهر إلى النسق المضمر في نفوس الصينيين تجاه تراثهم الهندسي الذي يعتزون بثرائه وأصالته، دون رفض لكل جديد ومفيد، "فالحوارية" المتناغمة المتصالحة في المباني الصينية تعزز ما سبقت الإشارة إليه من "الحوارية" الأصيلة المكونة للثقافة الصينية،وإنسانها في "الحوار" والتسامح والتقبل للآخر مع الاعتزاز بذاتها.

وهو الاعتزاز بالهوية العمرانية الأصيلة "للصين" الذى يحمله الصيني إلى خارج أرضه، يقول "علي حسن فدعق" ١٤١٧هـ، وهو في "سنغافورة" التي زارها عام ١٩٦١م: "**ثم ذهبت برفقة الإخوان لزيارة المتحف الصيني العجيب الذي أقامه تاجر صيني بمفرده، وخسر مئات الألوف من الدولارات، وجعله تحفة إنسانية رائعة يتنفس فيها الشعب السنغافوري، ويمضي فيها ساعات مع التاريخ الصيني القديم،وتعاليمه التي كانت سائدة في عصر من عصور تاريخ الصين العظيمة**"[١].

ويبدو أن الولاء والتضحية،وإن كانا مكونين من مكونات الصيني، إلا أنهما ليس للأرض الصينية فقط، بل إنهما ليتجاوزان ذلك إلى صلات القرابة التي تربط الصيني بأهله وأسرته ومجتمعه . وهو ولاء لا يتحدد فيما يفعله الرجل فحسب، بل إن المرأة الصينية تحمل هذا الولاء أيضا، إذ يغدو وكأنه ثقافة عامة مشتركة في حب الصينيين والولاء لمجتمعهم، ومواطنيهم حيث ترفض المرأة الصينية الارتباط غالباً إلا بالرجل الصيني، وهو ما رآه وعجب منه،وتساءل عنه "علي حسن فدعق" ١٤١٧هـ حين تحدث أكثر من مرة حول هذا الموضوع،يقول في أحدها: "**المرأة الصينية لا ترتاح لغير الشاب الصيني تقريباً، ومن النادر أن تجد صينية تحب غير صيني، ولو كان الصيني غير جميل المحيا**"[٢].

---

(١) أيام في الشرق الأقصى، ٧٧.

(٢) المرجع السابق، ٨١.

ويعود الرحالة "فدعق" لطرح هذا السؤال عن هذه الظاهرة التي شدت انتباهه، فهي هاجس معه حتى حين يصل إلى "هونج كونج" ثم يتحدث عن لقائه بإحدى النساء الصينيات قائلا: "**سألتها عن سر تعصب الصينية للشاب الصيني حيث لا ترتاح كثيرا للغريب عن بني وطنها إلا ما ندر جداً**"(١).

ويبدو أن "علي حسن فدعق" ١٤١٧هـ، قد أعجب بمنظر المرأة الصينية، وهو يقارن ما يراه من قوام بعض الصينيات الرشيق بما يراه في العالم العربي أحيانا من قوام ممتلئ،ويورد المفارقة الطريفة،ويقول: "**وقد لفت نظري لباس غالبية السيدات والآنسات الصينيات. أنهن يرتدين "البيجاما" في تجوالهن، وهي بيجامات معقولة مقفولة من الرقبة واليدين، وقماشها من النوع الغالي الثمن، وهو من الحرير الصيني الأملس البراق ،وغالباً ما يزيد من فتنة المرأة الصينية الرشيقة جداً، والجميلة غالبا، وهي في سنغافورة وفي هونج كونج، تمثل المرأة الصينية الأصيلة فلا رفيعة هانم، ولا أشجار جميز،بل رشاقة وأناقة وجمال شرقي رائع، وبشرة ناعمة ملساء تزين هذا كله ابتسامة مشرقة**"(٢).

ويبدو أن حب الصينية للصيني ووفاءها له – حاضرا وغائباً – هو ما جسده المتحف الصيني وأكده "لعلي حسن فدعق" حين زاره ،وقال عنه:"**ولا يخلو المتحف من مرهفات كتمثال امرأة تذكر زوجها الغائب بالنظر إلى صورته دائماً، وهو تقدير الوفاء**"(٣).

وهو الوفاء الذى يجيب عن ملحوظات "فدعق" السابقة التي تتعلق بحب الصينية للصيني ووفائها له، وهو أن ارتباطها به، يعنى علاقة شرعية في ظل مؤسسة الزواج التى أشار إليها سابقا "السيرافي" فيما نقله عن عاداتهم في الزواج،

---

(١) أيام في الشرق الأقصى، ١١١.

(٢) المرجع السابق، ٨٠-٧٩

(٣) المرجع السابق، ٧٩.

وهو ما يشير إليه أيضا بعد قرون "محمد عبده يماني" ١٤٣١هـ حيث الانضباط واحترام الأسرة في "الصين"، إذ يختار الشاب الصيني كما يقول "يماني" :"**فتاته وينشأ بينهم حب وعلاقة، ونادراً ما تسمح الفتاة أو أهلها بأي ممارسة خاطئة قبل الزواج، فهناك التزام، وهناك عادات وتقاليد**"(١).

ويبدو أن الرحالة السعودي وهو يتحدث عن المرأة الصينية الحديث المعجب المثني ليس بعيدا عن تاريخه البياني الفني العظيم الذي ورثه له الشعر العربي الذي اهتم بالمرأة وصفا وحبا وحنينا،ولم يكن غريبا أن يجعلها في افتتاح عدد غير قليل من قصائده المتنوعة في أغراضها،وهو ما جعل الناقد "ابن قتيبة"٢٧٦هـ يعلله تعليلاً واضحاً في بحثه عن أسباب ورود ذكر "المرأة" في مقدمات قصائد كثير من الشعراء، بقوله: "**لأن التشبيب قرىب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام**"(٢).

بيد أن المرأة الصينية وإن بدت جميلة المظهر، مستوية القوام إلا أنها مع كل ذلك تجد انتماءها لزوجها ولبلدها ولأطفالها، ولذا يقول محمد العبودي ٤٤٣هـ وهو في إحدى قرى "الصين" التي تدعى (تابو) حين رأى ظاهرة الاهتمام بالأطفال ولباسهم؛ حتى تكاد تكون ظاهرة عامة في "الصين" هناك، فهم كما يقول :"**أطفال صغار قد ألبسوهم ألبسة نظيفة جيدة، والعناية بالأطفال ظاهرة تكاد تكون عامة فيما رأيناه**"(٣).

---

(١) قادم من الصين والإسلام بخير، ٢٦.

(٢) الشعر والشعراء، ٧٨.

(٣) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ١٤٧/١.

وهي مظاهر تدل على اهتمام المرأه وعنايتها بأطفالها، ورعايتها لهم على نحو جعل من المشهد مشاهد متعددة، ومن المنظر الواحد منظرا عمومياً لا يكاد يغيب عن عين الناظر في "الصين".

ومن جوانب المرأة الصينية التي تدل على انجذابها وولائها وحبها لبلدها،اهتمامُها بعملها وهو ما لاحظه أيضا "محمد العبودي"١٤٤٣هـ على بعض العاملات الصينيات اللواتى رآهن في إحدى الفنادق "بالصين" وأثنى على ملابسهن،وأعجب بأدبهن وعملهن وأنهن- كما يقول – قد "**جمعن بين أدب الصينيات في الخدمة، والتزام الغربيات**"(١)، ويبدو لي من خلال ما سبق أن الالتزام بالعمل قيمة صينية متجذرة في الثقافة الصينية، فهن قد التزمن أدب الصينيات، والتزمن أيضا التزام الصينيات، لا الغربيات،حيث ثقافة الإيمان بمبدأ العمل ومساعدة الآخرين عادة صينية أصيلة في الصين،وليس تأثرا بثقافة أخرى! ولذلك وفي رحلة أخرى ترفض عاملة الفندق التي رتبت غرفته أن تأخذ "بقشيشا" أراد إعطاءه لها في أحد فنادق "الصين" ويقول: "**فأردت أن أمنحها شيئاً من الحلوان "البقشيش"، لأني كنت وحيداً، فهذا ينفعها لفقرها،ولتأخذ ذكرى طيبة عن زيارة وفدنا الإسلامى لهذه البلاد، وبخاصة أنها كانت وحدها، ولكنها رفضت بكل عزم وتصميم ولم أستطع إقناعها**"(٢).

وهو الموقف ذاته الذي تتجلى فيه المرأة الصينية معطاءة ومهذبة متميزة، حين يحتاج العبودي مظلة من فتاتين صينيتين،إحداهما له، والأخرى لمرافقة؛ لإكمال جولتهما في إحدى الحدائق،وترفضان أيضا أخذ المال الذي دفعه لهما؛تقديرا لموقفهما، ويقول:"**ولكن بعد نهاية الجولة رفضتا أن تتسلما شيئاً، وسقنا الحديث عن هذه الحادثة التافهة لتدل على سهولة المعاملة عند هؤلاء الصينيين تجاه ضيوفهم من الأجانب**"(٣).

---

(١) في جنوب الصين، حديث عن المسلمين في ماضيهم وحاضرهم، ٨٢.

(٢) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين، ٢٤٢/٢.

(٣) المرجع السابق، ١٨٢/١.

إن تمثيل الكرم الصيني في المدونة الرحلية السعودية ليظهر قدراً كبيراً من العلاقات الإيجابية التي يحملها الصينيون مع زوارهم، وهو كرم أبانت المرأة جزءاً منه، وأبانته مواقف أخرى للرحالة على اختلاف رحلاتهم، وتنوع أسبابها، فهذا "محمد العبودي" ١٤٤٣هـ يرصد التاريخ المضيء للصينيين حينما كان يرى كرمهم في رحلاته، ويقول: "**إن أفواجاً من المسلمين ومن العرب والفرس والأتراك كانوا يأتون إلى الصين جالبين حضارتهم وخبرتهم التجارية فيجدون من أهل هذه المنطقة الاستقبال الكريم، والترحيب الحار الذي يلقاه الأصدقاء من الأصدقاء حين كان طريق الحرير القديم جديراً بأن يفرش بالحرير ؛لأنه كان الطريق الذي سهل التبادل ما بين المسلمين في الأقطار العربية الإسلامية وبين أهل شمال الصين ووسطها على وجه العموم**"(١).

ولا غرابة في ذلك فالكرم الصيني التاريخى يتجلى حديثا ويتجدد مع الرحالة السعوديين مذ وصولهم إلى "الصينط،يقول "يحيى المعلمي" ١٤٢٢هـ: "**وصلنا إلى الصين وهناك استقبلنا أصدقاء لنا لم نعرف أكثرهم من قبل، ولكنهم غمرونا بِعُودَتِهم، وأفاضوا علينا من مكارم أخلاقهم، ولطف معشرهم ما جعلنا نشعر وكأننا أصدقاء خلصاء منذ عشرات السنين وفي الصين أخذنا مضيفونا الكرام، وأحاطونا بمظاهر التكريم، وأشرقت وجوههم، بما تكنه سرائرهم من مشاعر الحب والتقدير والاحترام، حتى أنسونا أننا نعيش معهم بعيداً عن أهلنا مسافات شاسعة تحول بيننا وبينهم البحار والمحيطات والجبال والسهول فأبدلوا وحشتنا أنساً، وجعلوا إقامتنا بينهم متعة سعيدة حتى كأنهم أعطونا (أهلاً بأهل، وخلانا بخلان)**" (٢).

إنها تفاصيل تواصل المدونة الرحلية السعودية بيان صورها المتنوعة المتواصلة التي أحاطهم بها الصينيون،حفاوةً واستقبالاً بالوجه واللسان والفعل؛ حتى لتتحول هذه الصورة إلى حركة موارة لكرم أصيل، ونفوس محبة،على المستوى النفسي والحسي.

---

(١) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ، ٢٥٢/٢.

(٢) رحلة علمية ورحلات أخرى، ٢٤٤-٢٤٥.

وتأتى المائدة الصينية لتكون علامة على هذا الكرم المتجدد، سواء في شمال "الصين" أو في جنوبها يقول "محمد العبودي" ١٤٤٣هـ لمضيفيه في جنوب "الصين" حين يقارن بين أكل شمال "الصين" وجنوبها، وهو الرحالة الذي جال فيها مرات متعددة: "**ولكني قلت لهم ما عرفته وجربته وهو أن طعامهم يشترك مع طعام أهل الشمال في كونه لذيذاً وافراً، يدل على الكرم في التقديم، وعلى التعب في الإعداد**"(١).

ويتحدث "يحيى المعلمي" ١٤٢٢هـ عن تفاصيل المائدة الصينية التي تتنوع؛ إمعانا في الإكرام: "**وفي الصين أنواع كثيرة من الأطعمة أساسها يستخرج من البحر، وهم يقدمون للضيف كميات كبيرة من الطعام على دفعات صغيرة في أطباق متعددة، ويخلطون الحلو بالمالح، فقد تجد أمامك شريحة من السمك، ولكن عندما تتذوقها تجد فيها طعم السكر أو العسل، وقد ترى بين يديك طبقاً من الحلوى، وعندما تضعه في فمك تدرك أنه قد مزج بشيء من اللحم أو السمك، وقد كنا نتذوق الطعام الصيني فنأكل ما يروق لنا منه، ونعرض عن غيره، ولكننا والحق يقال نملأ بطوننا مما نذوق لكثرة أصنافه، وتعدد أنواعه، وفي الصين يجعلون الزائر يذوب خجلاً مما يغدقون عليه من الحفاوة والتبجيل والاحترام، وهم يفعلون ذلك طبعاً لا تطبعاً ويبدو حقيقة لا تصنعاً، وبذلك يأسرون قلوب ضيفهم، ويكسبون ود صديقهم**"(٢).

إنه الكرم الصيني الحسي والمعنوى، كرم المائدة، وكرم الابتسامة والبشاشة ،والمدونة الرحلية حينما تذكر ذلك تذكره وفي ذاكرتها محفوظها من "الشعر العربي" لكثير من الأبيات التي سارت نموذجاً على الإكرام حد الشعور بالخجل،وبخاصة حين تشير إلى كرم النفس وبشاشة الاستقبال الذي تميز به الصينيون،وجذبوا الرحالة السعوديين للكتابة عنه،والإشادة به،وهم يعون أن البيان العربي الشعري كان يتغنى

(١) في جنوب الصين حديث عن المسلمين في ماضيهم وحاضرهم، ١٣٧.

(٢) رحلة علمية ورحلات أخرى، ٢٤٦.

بكرم الوجه الذي مثله الصينيون خير مثال،وأردفوه بكرم الموائد،وحسن الاستقبال،فقد كان مكانهم غنيا بالكرم الإنساني والمكاني،بحيث تفوق على أحد أمثلة العرب الشعرية التي يستشهد بها دوما حين يجدب المكان،ولكن وجه الإنساني يعطي الكرم بوجهه وابتسامته،على حد قول "إسحاق الخريمي" ٢١٢هـ:

أضاحك ضيفي قبل إنـــزال رحـــله ... ويخصـــب عندي والمكان جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيـــب[١]

فلئن اعتذر الشاعر بأن أحلَّ مكانَ جدبِ مكانِه طيبَ لسانه وبشاشة وجهه؛لعدم استطاعته إكرام ضيفه بسبب فقره؛فقد كان الكرم الصيني خصيبا في وجه الإنسان،وخصيبا في ألوان الطعام والشراب .وهو الكرم الذى رصده الرحالة السعوديون بشاشة في الاستقبال، وكرماً في الترحيب إلى جانب موائد عامرة بالطعام الصيني المنوع والوافر، بل إن الكرم الصيني يتجاوز حتى يصل إلى عادات شرب الشاي وموائده.

يقول "محمد العبودي" ١٤٤٣هـ عن عادة الصينيين في شرب الشاي إنهم :"**يرون من إكرام الضيف أن يكون قدحه مليئاً بالشاي حتى يترك المائدة أو مكان الاجتماع سواء أطلبه أم لم يطلبه، وكلما نقص الكوب زادوه من عندهم**"[٢].

ويقول مرة أخرى، وحول ذات الموضوع عن المائدة الصينية إن من عاداتهم: "**أن يقدموا للضيف حافلة بالمكسرات أشبه ما تكون بالمائدة التي يعبر عنها في البلدان الغربية ومن قلدها من أهل بلادنا العربية بمائدة الشاي، ولكنهم يجعلونها حافلة بالأطعمة التى تغني عن المائدة الرئيسية الحارة، لأنها تكون قد اشتملت على أنواع منوعة من الكعك ومن الخبز الخفيف الذي يضعونه حسب طريقة لهم خاصة، فالصينيون لا يقلدون غيرهم في صنع الطعام، وإنما العكس هو الصحيح على مدى التاريخ**"[٣].

---

(١) ديوان الخريمي، ١٢.

(٢) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين، ٢٥٣/١.

(٣) المرجع السابق، ١١٧/٢.

إن الطعام وصنعته، والكرم في تقديمه صفات سجلتها الذاكرة السعودية تجاه الصينيين مواصلة اتفاقها وتناغمها مع المدونة العربية القديمة. بل إن جملة الرحالة "العبودي" التى تقول إن الصينيين "لا يقلدون غيرهم"هي الجملة التي تذكرنا بالفعل الصينى بشكل عام، فهو الفعل الذى لا يريد أن يشبه أحدا ؛لأنه مفطور على الريادة والتميز والريادة .

وهو الكرم الذى رآه "محمد العبودي" ١٤٤٣هـ بعد ختام إحدى زياراته المتكررة "للصين" ويرى أنه تقدير للمملكة العربية السعودية وقيادتها وشعبها، وهو ما يدل على أن الصين هي الأرض الجاذبة بطيب فعال أهلها، حيث يقول إنه: "**لقى كثيراً من الحفاوة والترحيب على المستويين الشعبي والرسمي، مما يعكس احترام الشعب والحكومة في الصين لبلادنا ورغبتها في توثيق العلاقات مع المملكة العربية السعودية**"(١).

ويقول في مكان آخر عن حسن استقبال الصينيين إننا :"**تلقينا من حسن الاستقبال وكرم الضيافة في الصين ما أوجب أن نكون له من الشاكرين الذاكرين**"(٢)

إن الكتابة عن مثل هذه هو المواقف والإشادة بها لون من ألوان الوفاء والعرفان، وهي في الوقت ذاته فضاء تصنعه المدونة الرحلية للقارئ المتلهف؛لمعرفة تجارب هؤلاء الرحالة في "الصين"، وهي تكتب ذلك لمتلق يملك في مخزونه البياني والاجتماعي تقديرا لهذه القيمة الأصيلة من قيم المجتمع العربي التي تمثل"سيسيولوجيا"بنية من بنياته التي يحتفي بها العربي ويحتفل شعرا ونثرا.وهو ما يعني أنٍ هذا المشترك الذي يعد من أكبر قيم العطاء الصادق قناة من القنوات الأكثر وضوحاً في رسم صورة "الصين" الحقيقية البعيدة في الجغرافيا القريبة من الوجدان العربي الإسلامي قديما،والسعودي حديثا.ولا غرو فمرجعية المدونة القديمة والحديثة هي مرجعية واحدة تؤكد على اعتبار الكرم قيمة سامية،وخصلة نبيلة في الإنسان أيا كان جنسه أو عرقه،وهو ما جعل "الصين" في هاتين المدونتين بلدا جاذبا ومتقبلا في هذه الذهنية،وجعل مواطنيه يوصفون في المدونتين بأثمن الصفات الإنسانية المعطاءة.

---

(١) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين، ٢/٢٦٤.

(٢) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين ١/١١.

ويستحث الإنسان الصيني بهدوئه وعلمه وأدبه الرحالة السعودي؛ ليكتب عن الشارع الصيني الذي يعد علامة باهية من علامات "أدب الطريق" التي يسمعها ويرددها الخطاب العربي المسلم كثيراً في مدونته الدينية نظريا؛ لكنه يراها واقعاً حقيقيا في "الصين"، يقول "محمد العبودي" ١٤٤٣ه : "**بل حتى آداب الطريق تراهم قد أخذوا بها، فهم مؤدبون مهذبون تجاه الغريب، لا ينظرون إليه شزراً ،ولا يقفون ليتفرجوا برؤيته فضلاً عن سؤاله أو سؤال غيره عن حاله**"(١).

ويقول في مكان آخر حول هذا الموضوع: "**لاحظت أن القوم يغلب عليهم جميعا الهدوء وعدم العجلة في السير، يستوى في ذلك منهم راكبو الدراجات مع سائقي السيارات**"(٢).

ويعود "العبودي" مرة ثالثة ليشي،ر ويشيد بهذه المنقبة التي رآها في "الصين" وهي الأناة والهدوء في الشارع الصيني حين كان يسير مع مرافقه في طريق متعرج، ويقول: "**وفي هذه الطريق تجلت الطريقة الصينية في السير وهي الهدوء، وعدم السرعة وذلك أمر مألوف في السهول فكيف به في هذا الطريق الجبلى المتعرج، ومن مظاهر ذلك أنهم عند المنعطفات رسموا بوق سيارة تنبيها للسائق بأن يطلق العنان لبوق سيارته حتى ينبه السيارات القادمة التي تقابله**"(٣).

ويبدو أن المرتحل هنا يدعو قارئه للمقارنة بين هذا الهدوء الحضاري الضارب في الرقي والتقدم في "الصين" مع مسالك الشارع لدى "الذات" والشكوى الغالبة من بعض التصرفات المزعجة في شارعها، وعدم تقيد بعض السائقين بهذه الأدبيات، ومع الحديث عنها والتذكير بسوئها، إلا أن الالتزام لما يصل غالبا إلى هذه الحالة الصينية الحضارية المتميزة.

---

(١) داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين، ١٥٤/٢.

(٢) المرجع السابق، ٩١/١.

(٣) المرجع السابق، ١٤٨/١.

إن ما سبق من الإشارات والإشادات ب"الصين" على مستوى كرم أصحابها، وأدبهم وتفاعلهم الإيجابي مع الغريب، وأمانتهم؛ ليدل دلالة واضحة على أن المدونة السعودية كانت امتداداً للذاكرة التأسيسية العربية، التي أشادت بهذه القيم ودونتها بكل تجرد وإنصاف، مما يمكن أن يكون مدعاة لمزيد من التواصل والتكامل والتقارب مع هذه الدولة الجاذبة بحضارتها ورقيها، وكرم مواطنيها وأدب شوارعها. وهي صفات تدعو إلى زيارتها ومشاهدة كل هذا الرقي التي صنعته هذه الدولة بجهود أبنائها، رجالا ونساء،وهو ما يلخصه "يحيى المعلمي" ١٤٢٢هـ حين يقول: "**كل مافي الصين يشعرك أن هاهنا أمة صممت على أن تحافظ على كيانها ومبادئها،وأن تثبت وجودها في هذا العالم المضطرب الذى يحترم الأقوياء، ولا يرعى للضعفاء إلا ولا ذمة**".([1])

وهو استشراف "ليحيى المعلمي" لم تزده الأيام إلا رسوخا منذ رحلته التي كانت قبل ظهور نهضة الصين الحديثة، إذ حققت "الصين" منذ ذلك الوقت وإلى اليوم قفزات متتالية وسريعة على كافة الصعد، وأصبحت رقماً عالمياً يشار له بالاحترام والتقدير، ويُنظر إليه باعتباره قوة عظمى، ولكنها القوة التي لم تجعل من "الصين" وشعبها قوة هدم وغزو وسيطرة على مقدرات الشعوب، بل كانت منجزات صناعية وتقنية متسارعة؛ خدمة لاقتصادها، وتنويعاً له، وتكريساً لمبدأ "العمل" المتقن بين مواطنيها، مع المحافظة على علاقات طيبة مع جيرانها الأقربين والأبعدين؛ فلم تتحول إلى قوة همجية تستخدم قوتها في إيذاء أحد، أو الاعتداء على أي بلد.بل لقد أمدت دول العالم ولا تزال تمدها بكل وسائل التحديث المتنوعة التي سهلت حياته،ومنحته أجمل المخترعات أنواعا وأشكالا مختلفة، بعد أن أجادتها اليد الصينية منذ عصور قديمة جدا .

([1]) رحلة علمية ورحلات أخرى،٢٤٥

إن :"الشمول البنيوي مع انضباطه الذاتي وتحولاته" من داخل البنية يظهر من خلال تأمل المدونة التى تحدثت عن "الصين" الجاذبة، فالتضحية الدالة على "الولاء" –مثلا– التي أوردها المؤرخ "الحميري" ٢١٣هـ مثالاً على هذا الولاء، والتأكيد النظري على هذه القيمة التي أشار إليها "القلقشندي" ٨٢٠هـ، سنجد أنهها تتحول تحولاً بنيوياً في مدونة الرحالة السعوديين بعد قرون طويلة، إذ ما زالت صورة الولاء تتجسد، مما يعني أنه ولاء أصيل في الشخصية الصينية يمثل "شمولاً" وتحولاً في تفاصيله وشواهده، ويؤكد أن صحة وصف العقلية العربية هنا بمبادئ البنيوية التكوينية في النظر نحو "الصين" بأنها بنية "شاملة" "ومنضبطة" نحو هذه القيمة، "ومتحولة" حسب سياقاتها ومشاهداتها وحوادثها ؛فمن المدونة التأسيسية عند "القلقشندي والحميري" إلى شواهدها عند "المعلمي" ١٤٢١هـ الذي يرى "الولاء" الصيني متمثلاً في البناء، الذى يمثل هوية جمالية، لكن تأمله "سيميائياً" يدل على أن الهوية الصينية حاضرة أجمل الحضور في أعماق الصينيين، وهو حضور لا ينفي الجديد أو يصادره، وهو الولاء الذي نجده عند "فدعق" ١٤١٧هـ حين يشير إلى رجل الأعمال الصيني الذي أنشأ في "سنغافورة" متحفاً صينياً خسر من خلاله الآلاف من الأموال؛ حبا وولاء لبلده وتاريخه وحضارته.

وسنجد هذا "الولاء" الذى أشارت إليه المدونة التراثية متمثلاً عند "فدعق" أيضا في صورة المرأة الصينية التي لا تحب،ولا تريد الارتباط والزواج إلا من الصيني، حتى ولو كان غير جميل،وهو حب متجذر، ووفاء أصيل يتجلى أيضا في وفائها له في غربته. وهو ما حكاه تمثالها الذي رآه "فدعق" في المتحف الصيني ،حيث تمثال المرأة الجالسة الناظرة إلى صورة زوجها البعيد عنها في غربته،إذ تظل تنظر إلى صورته؛ حباً ووفاء له، باعتبار أن الوفاء مفهوم عام، وسمة بارزة في حياة الصينيين لكل ما هو صيني، وهو ما يعني أن البلاد الصينية التي تمنح مواطنيها هذا الوفاء نحوها،ونحو الصينيين لبعضهم جديرة بالزيارة والمشاهدة والاطلاع على منجزات هذا الشعب الإنسانية والتصنيعية الهائلة.

وحين تشير المدونة التراثية العربية إلى تشابه الصينيين مع العرب كما ورد لدى "النويري" ٧٣٣هـ بأنهم شعوب وقبائل مثل العرب تأتى رؤية "العبودي" مشيرة لقيم الاهتمام بالأسرة والأطفال خاصة، مؤكدة هذه القيم الأصيلة، وهذا التشابه المحمود بين الثقافتين العربية السعودية والثقافة الصينية .وهو التشابه أيضا الذى أوردته المدونتان التأسيسية التراثية العربية والسعودية الرحلية الحديثة حين الحديث عن الزواج في "الصين" فإذا كان"السيرافي" قد أشار إليه في واحدة من أقدم المدونات الرحلية العربية عن "الصين" حين أشار إلى عادتهم في الزواج، واتفاق الأطراف ثم الإعلان عنه، فإن ذاك هو ما يشير إليه "محمد عبده يماني" من خلال تأكيده على احترام الصينيين للأسرة،واحترام الصينيين لمؤسسة الزواج، والعلاقات العائلية.وهو ما أكدته رؤية الرحالة السعودي "علي فدعق"بإشارته المتكررة لوفاء المرأة الصينية لزوجها، بل وعدم رغبتها في الزواج من غيره قبلا.

وأنت واجد الإشارة إلى الكرم الصيني حاضرة في المدونة التأسيسية عبر موقف الأمير "القُرْطَى" مع "ابن بطوطة"الذي أشار إشارة دالة تفيد بأن الأمير الصيني كان يقطع اللحم بيده،إذ نجد المدونة الرحلية السعودية الحديثة منساقة ومؤكدة هذه الخصلة ذاتها، حين تدون هذا الكرم الصيني الذي شاهدته عبر نماذجها الرحلية، التي أشارت إلى المواقف المتكررة التي تدل على هذا الكرم الصيني في أكثر من موقف ومكان في الصين. ولا غرو فهي ثقافة أصيلة قديمة تجذرت وتأكدت عند الصينيين؛لتكون رسالة من الثقافة الصينية مفادها العريض الترحيب المتجدد بكل ماهو عربي وسعودي، حيث يشير إلى ذلك "محمد العبودي" مؤكداً أن تنوع الطعام، وحفاوة المضيفين كانت بارزة ومختلفة عن الآخرين، وحيث تقدم مائدة "الشاي" على نحو خاص بالصينيين من حيث الكثرة والتنوع فيها،حتى إنهم في موائدهم كما يقول "العبودي" لا يشبهون أحداً في ذلك، بل يحاول غيرهم أن يشبههم، وهي إشارة صادرة من رحالة ثقف الرحلات وخبرها،حتى ليعد واحداً من أكثر الرحالة تجوالاً في العالم، ومن أكثر الرحالة كتابة في أدب الرحلة، وربما كان الأول دون منازع

إلى هذه اللحظة[١] وهو الكرم الذى أشعر "يحيى المعلمي" بالخجل ؛ لصدق هذا الكرم، وبشاشة الصينيين في الاستقبال؛ حتى لكأنهم عوضوه ومرافقيه "بالأهل أهلاً وبالخلان خلاناً" كما يستحضر جمالية الترحيب الصيني العابق بالحب والصدق والبشاشة من الصينين؛ مستحضراً بعض محفوظاته الواسعة من الشعر العربي؛ لمحاولة وصف هذه المواقف الصينية المحبة المستبشرة بضيوفها.

وفي جانب من هذه الرؤية الصينية الجاذبة للعربي نحو "الصين"تأتي خاصية ورود "العصا" بحمولاتها الثقافية في المدونة الرحلية التأسيسية، حين تشير إلى أن الصينيين يتفقون مع عادة العرب في استعمال العصا في حياتهم وفي خطبهم وهي المسألة التي نقمها على العرب الشعوبيون؛ حتى اضطر "الجاحظ" أن يدافع عن هذه العادة،وكأن المدونة التأسيسية العربية تدافع عن هذه العادة من طرف خفي،ولكنه طرف قادر وذكي حين يثبت استعمال الصينيين لها، وأنهم يعدونها رجلهم الثالثة كما ينقل عنهم "ابن بطوطة" وهو دفاع عن هذه العادة باستحضار "الصين"، وعاداتها وهي الحضارة الراكزة تفوقا في العقل الإنساني.

وحين يشير "السيرافي"٣٣٠هـ إلى أن طعامهم "الأرز"، وينبه "ابن بطوطة" ٧٧٩هـ إلى كثرة "السكر"في بلاد الصين وجودة فواكهها،وتفوق ما فيها عما لدى العرب،نجد أن "العبودي" ينساق بنيويا إلى هذه البنية،وفق تحولاته السياقية، حيث يشيد بموائدهم عامة،ويركز أحيانا على اختلاف مائدة "الشاي" عند الصينيين،إذ يضعون له مائدة خاصة، لا تقل عن مائدة الطعام، وحين يشير "السيرافي"إلى "الأرز" نجد صدى ذلك في المدونة الرحلية السعودية حين أشاد"العبودي والمعلمي"بطعمه، وطعم أنواع أخرى من الأكل الصيني الذي وجداه على المائدة الصينية، وأشادوا به ضمن إشاداتهم بالمائدة الصينية العامرة عموما.

---

(١) أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، ١٨١.

ولن يكون خافياً – بعد ذلك– تعليل السرور الذى يشعر به كل من زار بعض مناطق الصين كما أشار إلى ذلك "ابن خرداذبة" بعد أن بينت المدونتان التأسيسية التراثية والسعودية الحديثة بعض أسباب هذا السرور الذى كان له ما يبرره من حيثيات صينية جاذبة على كل المستويات،شكلت صلات عميقة بين "الصينيين والعرب قديماً ،وبين الصينيين والسعوديين حديثاً،سواء أكان ذلك على مستوى الأطر الأخلاقية والاجتماعية، وعلى مستوى الأمن، وصدق التعامل، وأمانة الكلمة.

إن من الأمور اللافتة للنظر أن الأنساق العربية التى يتحدث عنها النقاد في مباحث "النسق وآليات النقد الثقافي" قد وجدت صداها في بعض ما كتبه بعض الرحالة السعوديين في هذا المبحث؛ فإذا كان "النسق" الذكوري العربي الذي يعجب "بالمرأة" الجميلة عبر التاريخ،وهي المرأة التي أسهب الشعر العربي في تملى جمالها، واختراع التشبيهات الكثيرة، والاستعارات المتنوعة لها ،حيث كان النسق القديم يتغنى–أحيانا– بالمرأة عظيمة الكفل والردف، كما يقول "المرزوقي" ٤٢١ه[١]، إلا أن المرأة الصينية جعلته بأدبها وحسن قوامها، وقدرتها على الحركة والعمل يعود ليؤكد على الجمال الجديد، الذي يرى الجمال في الخصر والجسم المتناسق النحيف، كما ظهر ذلك عند "فدعق" وجعله ينفى أن يكون في الصينيات جسم ممتلىء غالباً، مشيرا إلى علامة سيميائية طريفة عامة في الوطن العربي حيث :"رفيعة هانم" وأشجار الجميز".

كما أن النسق العربي الذي تحدث عنه "عبد الله الغذامي" متمثلاً في حالة "المتنبي" مع "سيف الدولة" حيث انغرست عيوب نسقية خطيرة جدا في الشخصية العربية يرى الغذامي : "أنها كانت السبب وراء عيوب الشخصية العربية ذاتها،فشخصية الشحاذ والكذاب والمنافق والطماع من جهة،وشخصية الفرد المتوحد وفحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخر من جهة ثانية هي من السمات

(١) شرح ديوان الحماسة، ١/٩٠٠.

المترسخة في الخطاب الشعري، ومنه تسربت إلى باقي الخطابات الأخرى" إلى أن يقول أن هذه العلاقة بين :"الشاعر المادح والممدوح المانح" "قد جلبت معها منظومة من القيم النسقية انغرست مع مرور الزمن؛ لتشكل صورة للعلاقة الاجتماعية فيما بين فئات المجتمع، من خلال ثقافة المديح التي تقوم أول ما تقوم على الكذب" ليؤكد بعد ذلك أن الشعر العربي أسهم في نشوء ظاهرة الرغبة والرهبة" وذلك كما يقول في مكان آخر: "بعد أن ظهر الممدوح عبر ظهور ملك وهو غساني أو مناذري" حيث "كانت اعتذاريات من النعمان بن المنذر من أهم النصوص النسقية التي تربى عليها الذوق الثقافي العام في العلاقة بين المادح والممدوح "[١] وهو ما جرى عليه كثير من المديح في الشعر العربى، إلا أن هذه العلاقة بين "المادح والمانح" تتعرض لرؤية صينية مختلفة تماما، توردها المدونة العربية وتشهد بها ضمن أدبيات "الصين" الصادقة، "فالقلقشندي" يشير إلى أن الصينيين يطيعون "ملكهم لا لمال ولا جاه" وهي المنقبة التي لا يمكن بالطبع تعميمها على الحالة الصينية القديمة، ولا تعميم خلوها في الحالة العربية القديمة أيضا، إلا أن نقل "القلقشندي" لها بكل هذا الوضوح ينطلق من ذاكرة محملة بكثير من القصائد العربية التي قيلت في المديح؛ من أجل أغراض نفعية، وهو ما ترفضه الحالة الصينية، حيث تتسامي الطاعة عن المصلحة، ويصفو الحب للوطن ولقادته، وهو ما عرضته المدونة التأسيسية في خبر "شمر بن يرعش" الذى أفشله فشلا ذريعا حبُ الصيني لوطنه، وتضحيتُه من أجله.

إن مما يدعو المتأمل إلى تملي العلاقة بين القادة والملوك والشعراء قصة "الأقيشر" مع ملك الصين "الدهقان"، حين منحه مهر زوجته "الرباب"، فكافأه "الأقيشر" بمقطوعة هجائية ممازحة، ولا شك أننا يمكن سيمائياً أن نثق في أن "الأقيشر" ما كان ليستطيع ذلك، وفق الأعراف المرعية في الثقافة البيانية العربية التي أشار له عبدالله الغذامي، وجعلها سببا في نشوء "العطاء بالمقايضة البلاغية الشعرية، والكريم هو

(١) النقد الثقافي ،٩٣-٩٤-و١٤٩-١٥٠.

من يعطي الشاعر كمقابل للمديح،ومن لا يفعل ذلك فهو البخيل المذموم،مع ما يتبع ذلك من تبادل للمصالح الذاتية للمادح والممدوح "[١] فقد قلب "الأفيشر" وممدوحه الملك الصيني المعادلة النسقية التي رآها الغذامي في المدونة العربية الشعرية القديمة،وقدما نموذجا من العلاقة الودية الطريفة بين "المادح والمانح"؛حيث أعطى "المانح وهجا المادح"! وذاك يدل على مساحة من الود بين المادح والمانح تتجاوز ما عناه النقد الثقافي ونظَّر له من خلال الشاعر المادح والممدوح المانح، فقد نقضت الثقافة الصينية هذا المفهوم، وقدمت نموذجها المتسامح في سياقه السياسي،وقلبت معادلة المادح والمانح؛ ليكون المانح هو المهجو من المادح!

إنها نصوص تشير إلى مساحة الائتلاف والقبول والإعجاب بما لدى هذا "الآخر" الصيني، وعدم التحرج من إيراد الطرائف والمفارقات، وهو ما صنع ويصنع في المتلقى مساحة قبول له، ورغبة في زيارته ومشاهدة بلاد الصين التي يمثلها "قان" متسامح،وشعب بكل هذا الكرم والأمانة ونبل التعامل، مما سجلته المدونة العربية القديمة والسعودية الحديثة، بصورة موضوعية بعيداً عن إشكالات الرفض والمصادرة والتحيز للذات دون وعي.

---

(١) النقد الثقافي،١٩٠.

الخاتمة

وبعد هذا التجوال في المدونة العربية قديماً، والمدونة السعودية حديثاً، وبعد هذه النصوص التي جمعت وضمت ودرست ضمن نظام بنيوي متماسك، حاول أن يبني موقف "الذهنية العربية" من "الصين" وكشف عن سياقات، ونوع هذا الحضور الإيجابي. يمكن أن يوجز البحث بعض النتائج التي وصل إليها، مردفا إياها ببعض التوصيات التي يرى أهميتها:

النتائج:

١- انتظم حضور "الصين" الإيجابي منذ أقدم مدونة عربية إلى آخر رحلة سعودية؛ وفق تسلسلها الزمني، ومن خلال رسم نظام بنيوي تكويني اتسم "بالشمول، والتحول الذاتي، والانضباط".

٢- تنوعت المدونات العربية القديمة التي أشارت "للصين"، وبجودة منتجاتها، وحكمة قادتها، وعدلهم، ما بين مدونات دينية، ولغوية، وأدبية، وشعرية، وتاريخية، وهو تنوع أكد بنيوية العقل العربي الناظر بإيجاب نحو "الصين".

٣- أشارت، وأشادت المدونات العربية قديماً، والمدونات الرحلية السعودية حديثاً، بخصال متنوعة من خصال التعامل الإنساني الرائع للإنسان الصيني مع الآخرين، وسجلت عمومية هذا السلوك النبيل على كافة مستوياته من الملوك، والوزراء، إلى المواطن الصيني الأمين الكريم.

٤- تواترت الشواهد في المدونات التراثية خاصة على التأكيد على جودة منتجات الصين، وتميزها.

٥- كشفت المدونة عن علاقات اجتماعية متبادلة بين العرب "والصين" قديماً، والصين والسعوديين حديثاً، وأوردت القصص، والمواقف والمشاهد التي دلت على هذا.

٦- اتسمت المواقف الصينية في مستوياتها المتعددة، السياسية، والاجتماعية بالتأكيد على قيم كثير من القيم الإسلامية العربية، ومنها "العدل، والأمانة، والكرم، وحفظ الحقوق ".

٧- اتجهت الإرادة، والإدارة الصينية السياسية العليا في عدد من المواقف، والمواجهات السياسية مع "الذات" العربية الإسلامية، إلى جانب تغليب لغة الحوار، وتجنب الحرب لا عن ضعف؛ بل عن قوة، وتمكن عسكري، وعقل حواري يتجه نحو السلام، وتكريس العمل والنماء.

٨- كشفت المدونة عن صورة من صور تقبل "الآخر" الصيني، والإشادة به، وإنصافه من خلال المدونات العربية القديمة، والحديثة؛ مما يعني أن العقل العربي – في المدونة – كان عقلاً منفتحاً، متقبلاً، لا عقلاً رافضاً، ومنغلقاً.

٩- سجلت المدونة العربية القديمة، والسعودية الحديثة للصينيين ولاءً لوطنهم، وحباً له، ورصدت بعض التضحيات التي قدمها الصينيون دلالة على ذلك؛ مما أضحى نموذجا بديعا حري بالرصد، والإشادة في المدونتين.

١٠- سجَّلت بعض المواقف السياسية لبعض ملوك "الصين" مواقف ذات دلالات مغايرة لبعض ما استقر في بعض رؤى نظرية "النقد الثقافي"؛حيث تهشم بعض النصوص ثنائية :"الشاعر المادح، والممدوح المانح" لتكوِّن ثنائية :"الممدوح المانح، والشاعر القادح".

التوصيات:

١- مواصلة البحث من قبل الباحثين في المدونات العربية التراثية قديماً، والسعودية والعربية حديثاً؛ لتجلية صورة "الصين" في هذه المدونات.

٢- تشجيع الدراسات الصينية التي تتجه نحو دراسة حضور العرب، والمسلمين في المدونات الصينية القديمة، والحديثة،ومقارنتها بالحضور الصيني في المدونات العربية.

٣- العمل على إقامة دراسات مقارنة بين حضور "الصين" في الذاكرة العربية، وحضورها في المدونات غير العربية؛، لأن ذلك سيكشف التحيز الذي يمارس أحياناً ضد العقل العربي، واتهامه بالانغلاق، ومصادرة الآخرين.

٤- توجيه صناع المناهج في وزارة التعليم، وفي الجامعات السعودية إلى اختيار نصوص مناسبة لمراحل الطلاب المختلفة من هذه المدونات العربية القديمة، والحديثة التي كتبت عن "الصين"، وخاصة فيما يتعلق بحب الوطن، والإخلاص في العمل.

٥- إقامة الملتقيات، والمؤتمرات التي تجمع الباحثين السعوديين، والصينيين، وغيرهم؛ للكتابة في موضوعات تختار بعناية؛ للكشف عن ثراء العلاقة بين "الصين"، والعرب عموماً، والسعوديين خصوصاً.

المراجع

١. أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، عبدالله حامد، الأولى، نادي أبها الأدبي، أبها ١٤٢١ه.

٢. الإعجاز والإيجاز، تأليف أبي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل االثعالبي النيسابوري (٣٥٠-٤٢٩هـ) عني بتحقيقه ابراهيم صالح، الأولى، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٣. أيام في الشرق الأقصى، علي حسن فدعق، الأولى، منشورات عويدات بيروت، ١٩٦٣م.

٤. البلدان، أحمد بن أسحاق أبي يعقوب جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ٢٩٢هـ، الأولى دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٤٢٢هـ.

٥. البلدان، أبوعبدالله أحمد بن محمد بن أسحاق الهمداني المعروف بابن الفقيه ٣٦٥هـ، تحقيق يوسف الهادي، الأولى، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٦. البيان والتبيين،أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ١٥٠- ٢٥٥ هـ، تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، السابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.

٧. تاريخ الصين، سلسلة كتب سور الصين العظيم، بدون، مجلة أبناء الصين، ١٩٨٦م.

٨. التذكرة الحمدونية ، ابن حمدون محمد بن الحسن بن محمد بن على، تحقيق : إحسان عباس، الأولى ، دار صادر، ١٩٩٦ م.

٩. تفسير الطبري، جامع البيان إلى تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٢٤-٣١٠هـ، تحقيق محمود محمد شاكر، بدون، دار ابن الجوزي، القاهرة، بدون.

١٠.تفسير مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق د. عبدالله محمود شحاتة، الثانية، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢ م.

١١.ثمار القلوب في المضاف والمنسوب،تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة الهمام ،أبي منصور عبد الملك محمد الثعالبي النيسابوري، بدون، مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٣٢٦ هـ، ١٩٠٨م.

١٢.الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، الأولى، دار طوق النجاة – ١٤٢٢هـ.

١٣.الحيوان ، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، الثانية ، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٥م شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

١٤.خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر عمر البغدادي ، تحقيق عبدالسلام هارون، الرابعة، مكتبة الخانجي – القاهرة ، ١٤١٨ – ١٩٩٧م.

١٥.الخطيئة والتكفير من البنيوبة إلى التشريحية Deconstractin مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية، عبدالله الغذامي، السادسة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت ٢٠٠٦م.

١٦.داخل أسوار الصين رحلة وحديث في شئون المسلمين، الجزء الأول، محمد بن ناصر العبودي، الأولى، مطابع الفرزدق، الرياض ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٧.دليل الناقد الأدبي– إضاءة لأكثر من سبعين مصطلحاً نقدياً معاصراً،د.ميجان الرويلي د/ سعد البازعي، الثالثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ٢٠٠٢م.

١٨.ديوان ابن الرومي، شرح الأستاذ أحمد حسن بسج، الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ١٤٢٣هـ.

١٩.ديوان أبي نواس، شرح وتحقيق محمد أنيس مهران، الأولى، دار مهران للعلوم، دمشق، ٢٠٠٩م.

٢٠.ديوان الأقيشر الأسدي، حققه د. محمد علي دقة، الأولى، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٩٧م.

٢١.ديوان الأمير شهاب الدين أبي الفوارس سعد بن محمد بن الصيفي التميمي

البغدادي المعروف بـــ(حيص بيص) ٤٩٢ – ٥٧٤ هـــ حققه وضبط كلماته وشرحها وكتب مقدمته مكي السيدجاسم، وشاكر هادي شكر،بدون،منشورات وزارة الإعلام،الجمهورية العراقية، ١٩٧٤م.

٢٢.ديوان البحتري، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، الثالثة، دار المعارف القاهرة، بدون.

٢٣.ديوان العباس بن الأحنف، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي، دكتوراه في الأدب من السوربون، بدون، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٧٣هـــ، ١٩٥٤م.

٢٤.ديوان الخريمي أبي يعقوب إسحاق بن حسان فوهي المتوفى ٢١٤ هـــ، جمعه وحققه علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعيبد، الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩١٧م.

٢٥.ديوان بديع الزمان الهمذاني، دراسة وتحقيق يسري عبدالغني عبدالله، الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣م، ١٤٢٣هـــ.

٢٦.ديوان لسان الدين بن الخطيب السلماني، ضبطه وحققه وقدم له د/ محمد مفتاح، الأولى، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٤٠٩هـــ – ١٩٨٩م.

٢٧.ديوان محمود الوراق شاعر الحكمة والموعظة، جمع ودراسة وتحقيق أ.د. وليد قصاب، الأولى، بدون، ١٤١٢ هـــ، ١٩٩١م.

٢٨.ديوان مهيار الديلمي، بدون، الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـــ – ١٩٢٥م.

٢٩.رحلة ابن بطوطة المسماة :"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، محمد بن عبدالله بن محمد بن ابراهيم الطنجي، أبو عبدالله ابن بطوطةالمتوفى ٧٧٩ هـــ، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبدالوهاب البخاري، بدون، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧ هـــ ١٩٩٧ م.

٣٠.رحلة السيرافي، أبو زيد حسن بن يزيد السيرافي ٣٣٠هـــ، بدون، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م.

٣١.رحلة علمية ورحلات أخرى، الفريق يحي المعلمي، بدون، دار المعلمي للنشر الرياض، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.
٣٢.الرسالة الأولى لأبى دلف بن المهلهل الخزرجي المتوفى أواخر القرن الرابع الهجري، دراسة وتحقيق د. مريزن سعيد عسيري، بدون، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
٣٣.رسائل الجاحظ أبي عثمان عمر بن الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون، بدون ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، بدون .
٣٤.زاد المسير في علم التفسير، الإمام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ٥٠٨-٥٩٧، الأولى، المكتب الإسلامي – دار ابن حزم ، بيروت ١٤٢٣ - ٢٠٠٢م.
٣٥.شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تأليف أبي علي أحمد بن محمد الحسن المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١ هـ، علق عليه وكتب حواشيه فريد الشيخ، وضع فهارسه العامة إبراهيم شمس الدين، الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت / ٢٢٠٠٢م -١٤٢٤هـ.
٣٦.شرح ديوان الصولي لديوان أبي تمام، دراسة وتحقيق د. خلف رشيد نعمان، بدون، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.
٣٧.شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي،(المتوفي ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه : مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي بالهند، الأولى، مكتبة الرشد، الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي الهند،١٤٢٣ه-٢٠٠٣م.
٣٨.شعر الأحوص الأنصاري، جمعه وحققه عادل سليمان جمال، تقديم شوقي ضيف، الثانية، مكتبة الخانكي، القاهرة، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
٣٩.الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، بدون، دار المعارف، القاهرة ، بدون.

٤٠.صبح الأعشى، أبى العباس أحمد القلقشندى، بدون، الطبعة الأميرية، القاهرة ١٣٣١هـ - ١٩١٣م.
٤١.الصين يأجوج ومأجوج عالم مجهول، عبدالعزيز عبد الرحمن المسند، الأولى، مطابع الفرزدق، الرياض ، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
٤٢.الطرائف واللطائف والبواقيت في بعض المواقيت، لأبي منصور الثعالبي، جمعها الإمام أبو نصر المقدسي، تحقيق ناصر محمدى جاد، مراجعة وتقديم الدكتور حسين نصار، مطبعة الكتب القومية بالقاهرة ١٤٣٠-٢٠٠٩م
٤٣.طوق الحمامة في الألفة والألاف، تأليف الإمام أبو محمد على حزم الأندلسي المتوفى سنة ٤٥٦ هـ، بدون، مكتبة عرفه بدمشق، بدون.

٤٤.العقد الفريد، تأليف الفقيه أحمد بن محمد من عبد ربه الأندلسي، تحقيق د/ مفيد قميحة، الأولى، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٣م.
٤٥.عيون الأخبار، ابن قتيبة الدينوري، الثانية، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٩٦ م.
٤٦.الفرج بعد الشدة ، أبى على التنوخي، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.
٤٧.في جنوب الصين حديث عن المسلمين في ماضيهم وحاضرهم ، محمد بن ناصر العبودي، بدون، دعوة الحق: كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، الشركة السعودية للتوزيع، جدة، السنة الثانية عشرة، ربيع الآخر، العدد ١٣٦، ١٤١٤هـ.
٤٨.قادم من الصين والإسلام بخير، د.محمد عبده يماني، الثانية، دار المعلمي للنشر والطباعة والتوزيع الرياض ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٤٩.قصة الحضارة "الصين - الشرق الأقصى"، د. وايرل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الرابع من المجلد الأول، بدون، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، جامعة الدول العربية، تونس.

٥٠.كتاب الأمالي مع كتاب ذيل الأمالي والنوادر ثلاثتهم من تصنيف الإمام اللغوي الأديب أبي علي إسماعيل بن القاسم عن عيذون القالي، ومعه كتاب التنبيه مع أوهام أبي علي في أماليه من تصنيف الإمام أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد البكري الأندلسى، تحقيق الشيخ صلاح بن فتحي هلل، الشيخ سيد بن عباس الجليمي، الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ، ١٤٢٢ هـ- ٢٠٠١م.

٥١.الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم جار الله محمود عمر الزمخشري الخوارزمي ٤٦٧ – ٥٣٨هـ، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه خليل مأمون شيحا، الثالثة، دار المعرفة بيروت / ١٤٣٠-٢٠٠٩م.

٥٢.اللامع العزيزي، شرح ديوان المتنبي، أبو العلاء أحمد بن عبدالله المعرى (٣٦٣هـ ـ ٤٤٩م)، حققه محمد سعيد المولوى ، الأولى، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية – الرياض ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٥٣.محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، بدون ، دار مكتبة الحية، بيروت، بدون.

٥٤.مسافر من الشرق والغرب، د. عبدالله بن سالم بن موسى القحطاني، الأولى، بدون، الرياض ، ١٤٣٤ هـ/ ٢٠١٣م.

٥٥.المسالك والممالك أبو القاسم عبدالله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبه ٢٨٠ هـ، بدون،صادر بيروت ، ١٨٨٩م.

٥٦.معجم المصطلحات الأدبية، بول آردون دينس سان – جاك – آلان فيالا، ترجمة د. محمد محمود، الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٣ هـ- ٢٠١٢م.

٥٧.معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، الثانية، مكتبة لبنان ، بيروت، ١٩٨٤م.

٥٨. المقابسات، أبوحيان التوحيدي ، تحقيق حسن الندوي، الثانية، دار سعاد الصباح ، الكويت / ١٩٩٢م.
٥٩. موجز تاريخ العلم والحضارة في الصين – جوزيف نيدهام، ترجمة محمد غريب جودة، بدون، الدار المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.
٦٠. الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة، الأولى، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، ١٤١٦هـــــ- ١٩٩٦م.
٦١. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، عبدالله الغذامي، الثالثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م.
٦٢. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري. الأولى، تحقيق د.مفيد قميحة، بيروت دار الكتب العلمية ٢٠٠٤م، ١٤٢٤ هـــ.
٦٣. نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويري. الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٢ هـــ ١٩٤٣ م.
٦٤. التيجان في ملوك حمير، عبدالملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد جمال الدين المتوفى ٢١٣هـــ يرويه عن أسد بن موسى عن أبي إدريس ابن سنان عن جده لأمه وهب بن منبه رضي الله عنهم، تحقيق مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الأولى، مركز الدراسات الأبحاث اليمنية، صنعاء، ١٣٧٤ هـــ.